المأخذ إلى المعنى في المدونة النقدية بين الممارسة التنظيرية والتطبيقية

د/ أحمد شوقي محمد بطحيش

مدرس بقسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين دسوق، جامعة الأزهر

(العدد الخامس والثلاثون)

(الإصدار الأول)

(١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م)

المأخذ إلى المعنى في المدونة النقدية
بين الممارسة التنظيرية والتطبيقية

د/ أحمد شوقي محمد بطحيش
قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين، دسوق، جامعة الأزهر، جمهورية مصر العربية.
البريد الالكتروني:ahmadBatheesh1315.el@azhar.edu.eg

ملخص البحث: هذه دراسة نقدية تبحث في جهات النظر إلى المعاني من حيث النشاط العقلي الذي يمارسه المتكلم قبل التعبير عن معناه، فتُعنى بنقد المعنى في ضوء ما عُبّر به عنه وما كان يمكن أن يُعبّر به عنه. وتبيّنت الدراسة أن هذا النشاط كان معروفًا لدى النقاد بالمأخذ إلى المعنى، وكان لهم فيه ممارسات تنظيرية وتطبيقية، ومِن ثمّ جاء البحث بعنوان: المأخذ إلى المعنى في المدونة النقدية بين الممارسة التنظيرية والتطبيقية، للإفادة من هذه الممارسات، وتطبيقها على بعض النصوص المختارة، واشتمل على: مقدمة فيها نبذة مختصرة عن الموضوع، وتمهيد يحتوي على مفهوم المأخذ إلى المعنى والمصطلحات التي عبر بها النقاد عنه، وجاء في ثلاثة مباحث، عُني الأول منها بعرض ممارسات النقاد التنظيرية للمأخذ إلى المعنى، وعُني المبحث الثاني بالممارسات التطبيقية لديهم، وجاء المبحث الثالث لاستنباط المنهج وتطبيقه على بعض النصوص التي أشاروا إلى مآخذها ولم يكشفوا عن أوجه القرب والبعد فيها. وتوصلت الدراسة إلى بعض النتائج، منها: المأخذ إلى المعنى كشفٌ للممارسات العقلية للكلام قبل الإبانة عنه، فهو باب من أبواب مكاشفة عوالم النفس التي يكتنفها الغموض والتشابك، وعلى قدر المشقة في استدعاء المآخذ التي تركها المتكلم، يكون الوقوف على حقيقة تصور أصحاب المعاني لها.

الكلمات المفتاحية: قرب المأخذ؛ دقة المدخل؛ المسلك؛ نقد المعنى؛ الموازنة.

The take to meaning in the critical code between theoretical and applied practice

Dr:Ahmed Shawky Mohamed Bathish
Department of Rhetoric and Criticism, College of Islamic and Arabic Studies for Boys, Desouk, Al-Azhar University, Arab Republic of Egypt.
Email: ahmadBatheesh1315.el@azhar.edu.eg

Abstract: This is a critical study that examines the perspectives on meanings in terms of the mental activity practiced by the speaker before expressing its meaning. The study showed that this activity was known to critics as the take to meaning, and they had theoretical and applied practices in it, and then the research came under the title: The Take to Meaning in the Critical Code between Theoretical and Applied Practice, to benefit from these practices, and apply them to some selected texts, and included: An introduction in which is a brief summary of the subject, and a preface containing the concept of the take to meaning and the terms that critics expressed about it, and it came in three sections, the first of which was concerned with presenting the critics' theoretical practices of the socket to meaning, and the second topic was concerned with their applied practices, and the third topic came to devise the approach And its application to some texts, which they pointed to and did not reveal the aspects of proximity and distance in them. The study came to some results, including: The take to the meaning is a revealing of the mental practices of speech before it is revealed, as it is one of the doors of revealing the worlds of the soul that are shrouded in mystery and intertwining, and as much as it is difficult to invoke the sockets left by the speaker, it is to stand on the reality of the meanings' perception of them.

Keywords: Near the outlet; Input accuracy; The course; Critique of meaning; Budgeting.

مقدمة

الحمد لله ذي الفضل والإنعام، والصلاة والسلام على خير الأنام، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن النظر إلى المعنى في السياق النقدي يتوجه نحو أمرين: نظر في صحة المعنى واستقامته لغة وعرفا، ونظر في التعبير عنه، والتعبير عن المعنى يكون مسبوقا بنشاط عقلي يمارس فيه المتكلم عمليتين: إحداهما إيجابية، والأخرى سلبية، فأما الإيجابية فهي (التخيُّر)، وتكون بانتقاء المتكلم من مستويات التعبير الثلاثة (اللفظي والتركيبي والتصويري) ما يتناسب مع المعنى الذي قام في نفسه، وأما السلبية فتكون بالعدول عما يعرض له من هذه المستويات ولا يتسق مع هيئة المعنى الذي أراده.

ومفهوم (المأخذ إلى المعنى) وصفٌ لهذا النشاط العقلي عند النقاد، ونقد المعنى من هذه الجهة يكون بالموازنة بين هاتين العمليتين العقليتين، فهو يقوم على افتراض وجود أكثر من طريق إلى المعنى، وأن ثمة طريقا واحدا هو الذي آثره المتكلم من بين هذه الطرق، وعلى هذا فإن المآخذ المتروكة تحوز عناية الناقد للمعنى من هذه الجهة؛ لأنه يَتصور قيامَها في الذهن في أثناء ممارسة المتكلم لهذا النشاط العقلي، وهذا من أهم مزايا هذا الباب من النقد.

وقد نبَّه إليه أصحاب المعاني، وأهل العلم بالشعر والنقاد قديما، وجاء حديثُهم عنه مشفوعا بالتنظير تارة، وبالتطبيق تارة أخرى، ودلُّوا عليه بمفاهيم متقاربة من نحو: المأخذ أو المأتى، أو المهيع، أو الجهة التي هي أصح لتأدية المعنى، وغير ذلك.

ولما كان لهذا المعلم النقدي كبير أثر في التعرف على طبقات المعاني- ولم أجد في حدود اطلاعي دراسة تقوم به، أو تكشف بعضا من سماته- أردت أن أقترب من تصورهم له، وأستوضح معالمه من خلال ممارساتهم التنظيرية والتطبيقية في الكشف عنه، ثم أنتهج نهجهم في محاولة للتطبيق على بعض النصوص التي أشاروا إلى مآخذها، ولم يكشفوا عن أوجه

القرب أو البعد فيها، فجاء هذا البحث بعنوان: **(المأخذ إلى المعنى في المدونة النقدية بين الممارسة التنظيرية والتطبيقية)**؛ لتحقيق هذه الأهداف، واقتضت طبيعته أن يُقسَّم إلى: مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، على النحو الآتي:

المقدمة، فيها نبذة مختصرة عن الموضوع وأهميته، والخطة، والمنهج.

والتمهيد: يشتمل على مفهوم المأخذ إلى المعنى، ومصطلحات النقاد في التعبير عنه.

والمبحث الأول: المأخذ إلى المعنى في ضوء الممارسات التنظيرية عند النقاد.

والمبحث الثاني: المأخذ إلى المعنى في ضوء الممارسات التطبيقية عند النقاد.

والمبحث الثالث: المنهج النقدي استنباطا وتطبيقا.

ثم الخاتمة، وبها نتائج البحث.

ثم ثبت المصادر والمراجع، ثم الفهارس.

واتبعت المنهج الوصفي بما يتلاءم مع طبيعة البحث من حيث النظر في كلام النقاد، واستنطاق إشاراتهم، واستنباط منهجهم.

ومما ينبغي التنبيه إليه أن منهج اختيار كلام النقاد في التنظير والتطبيق للمأخذ إلى المعنى، ليس منهجا استقرائيا كاملا، وإنما هو منهج انتقائي بما يخدم تصور الباحث، ويتناسب مع طبيعة البحث، وأسأل الله ﷻ السداد والتوفيق فيما أكتبه، وأن ينفع به، وأن يجعله خالصا لوجهه، فهو ولي ذلك والقادر عليه.

التمهيد

مفهوم المأخذ إلى المعنى :

المأخذ: مصدر ميميّ من أَخَذَ، وأصل الأخذ «حوز الشيء وجَبْيُه وجمعه. تقول أخذت الشيء آخذه أخذا. قال الخليل: هو خلاف العطاء، وهو التناول»[(١)]، والجمع مآخِذ، ومآخذ الطير: مَصائدها[(٢)]، والمآخذ: الطرق الموصلة إلى موضع ما، فـ«في حديث علي لما خرج مهاجرا بعد النبي ﷺ «فجعلت أتبع مآخذ رسول الله ﷺ فأطأ ذكره حتى انتهيت إلى العرج»[(٣)].

والمآخذ إلى المعاني، مجاز من ذلك، وحرف الجر (إلى) ترشيح لهذا المجاز، فهي طرق أو شعب يتخيرها المتكلم بعناية، بغية الكشف عن معناه بما يقترب من تصوره له.

والمأخذ إلى المعنى يوصف عند بعض النقاد بالقرب والدنو، وهم يقصدون حسنه ودقته، كما يوصف عند بعضهم بالبعد والعلو، ويقصدون أيضا حسنه ودقته، والتوفيق بين الأمرين يكون بتحديد الجهة التي نظر منها الناقد إلى المأخذ، فإذا اتجه إلى فحص اللفظ بإزاء المعنى من جهة مجيئه عفو الخاطر صفو الهاجس دون كدٍّ أو تكلف، حَكَم بقرب مأخذه، وإذا اتجه نظره إلى بيان الصنعة حكم بحسن مأخذه وعلوه وشدة شكيمته كما سنرى.

وأحسن المآخذ ما أسهم في تقريب المعنى البعيد الغامض بالمأخذ القريب السهل، كالذي قال عنه الجاحظ في تعليم صناعة الكتابة: «ثمّ خذه

---

(١) مقاييس اللغة: أخذ.

(٢) جمهرة اللغة: أخذ.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير الجزري: ٢٠١/٥،تحقيق: طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي: المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م، والعرج موضع بين مكة والمدينة.

بتعريف حجج الكتّاب وتخلّصهم باللفظ السّهل القريب المأخذ إلى المعنى الغامض»[١].

وعن أهمية وضوح المدخل إلى المعنى الخفي يقول الجاحظ في سياق آخر: «وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة وحسن الاختصار ودقة المدخل يكون إظهار المعنى، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح وكانت الإشارة أبين وأنور كان أنفع وأنجع، **والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله تبارك وتعالى يمدحه ويدعو إليه ويحث عليه. بذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب وتفاضلت أصناف العجم**»[٢].

والتقرب إلى المعاني الغامضة وتخليصها بالألفاظ القريبة التي تمتد إليها كالأسباب فتخرجها من الغموض إلى الظهور، أصل من أصول البلاغة، يقول ابن المعتز فيما نقله عن خالد بن صفوان؛ البلاغة: **التقرب من المعنى البعيد، والتباعد عن خسيس الكلام، والدلالة بالكبير على الكثير**، وينقل ابن المعتز أيضا تعريف ابن عتبة لها فيقول: **البلاغة دنو المأخذ، وقرع الحجة، والاستغناء بالقليل عن الكثير**[٣].

فهذان التعريفان يلتقيان في أمرين، هما: التقرب والدنو من المعنى، والدلالة على الكثير بالقليل، أي الإيجاز، واحترز خالد بن صفوان بوصف المعنى بالبعيد، ليخرج المعاني القريبة، وهي المشتركة بيّنة الاشتراك، ولم يشترط عبد الله بن عتبة هذا الشرط في تعريفه، إما لكونه واضحا متعالما

---

(١) الرسائل الأدبية، الجاحظ: ٢٠٦، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣ هـ.

(٢) البيان والتبيين، الجاحظ: ٧٥/١. تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة السابعة ١٤١٨هـ ، ١٩٨٨م.

(٣) ينظر: البديع في البديع، ابن المعتز: ١٠، دار الجيل، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.

عنده، وإما لقصد الاتساع، والذي أرجحه هو الأول؛ لأن المعاني الظاهرة التي يستوي فيها العامة والخاصة، ليست في حاجة إلى بيان مآخذها.

ومقياس قرب الألفاظ والأساليب من معانيها هو النظر إلى المعنى في ضوء المتعارف عليه عندهم، وما استعملوه في فصيح التعبير عنه، ثم الموازنة بين هذا وذاك، ولذلك قال عبد القاهر «اعلم أن لكل نوع من المعنى نوعا من اللفظ هو به أخص وأولى، وضروبا من العبارة هو بتأديته أقوم، وهو فيه أجلى، ومأخذا إذا أخذ منه كان إلى الفهم أقرب، وبالقبول أخلق، وكان السمع له أوعى، والنفس إليه أميل»[1]، ومقصد عبد القاهر من هذا التحديد هو الرجوع إلى استعمالات العرب الفصيحة، وطرائق بيانهم، والكشف عن مآخذهم إلى كل معنى، لنقف على مؤشرات أحقية اللفظ والعبارة والمأخذ، وهذا لا يعني الجمود والتوقف عند ألفاظهم وأساليبهم وصورهم، وإنما الشأن في تعيين ميزان للكلام يتبين من خلاله فضل اللاحق على السابق في زيادته عليه، أو تقصيره في اللحوق به، ولذلك عُني عبد القاهر بسبل التخيُّر، وأن الصنعة في اختيار الأفضل، فقال:«لا فضيلة حتى ترى في الأمر مصنعا، وحتى تجد إلى التخير سبيلا»[2].

ويقول صاحب العقد الفريد مفصلا بعض سبل التخيُّر وأثرها في تقريب المأخذ: «فإن حاولت صنعة رسالة فزن اللفظة قبل أن تخرجها بميزان التصريف إذا عرضت، وعاير الكلمة بمعيارها إذا سنحت؛ فإنه ربما مر بك موضع يكون مخرج الكلام إذا كتبت: أنا فاعل، أحسن من أن تكتب: أنا أفعل، وموضع آخر، يكون فيه: استفعلت، أحلى من: فعلت؛ فأدر الكلام على

(١) دلائل الإعجاز: ٥٧٥، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

(٢) دلائل الإعجاز: ٩٨.

أماكنه، وقلّبه على جميع وجوهه؛ فأيّ لفظة رأيتها أخفَّ في المكان الذي ندبتها إليه، وأنْزَعَ إلى الموضع الذي راودتها عليه فأوقعتها فيه»[1].

ولا ينبغي للناقد أن يقف مع اختيار المتكلم لأساليبه وصوره وألفاظه، عند جهة واحدة، بل عليه أن يُدير هو أيضا الكلام على أماكنه، ويقلبه على جميع وجوهه، ليقف على غرض المتكلم من إيثاره لفظا على لفظ، وعبارة على عبارة، ومأخذا على مأخذ، وأن يكون ذا ذوق لطعوم الكلام والألفاظ، وذا معرفة بمنازع الألفاظ إلى المعاني، وهذه الممارسات تنظيرية للكشف عن المأخذ إلى المعنى، وفي المبحث القادم مزيد منها، وفي المبحث الثاني أعرض للممارسات التطبيقية للكشف عن المآخذ، وبذلك يتهيأ لنا رصد منهجهم والإفادة منه في التطبيق على بعض النصوص في المبحث الثالث بإذن الله تعالى.

مصطلحات النقاد في التعبير عن المأخذ إلى المعنى:

استعمل النقاد مصطلحات متقاربة للدلالة على المأخذ إلى المعنى، نحو: **دنو المأخذ، علو المأخذ، تسهيل المآخذ، قرب التناول، غموض المسلك، دقة المدخل، سهولة المخرج، الإثلاج إلى الكلام من مدخل لطيف، المهيع ، قرب المأتى، وجوه اقتضاء المعنى، اطراد المعاني والأساليب نحو المنزع.**

(١) العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي: ٢٦٩/٤، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ هـ.

المبحث الأول

المأخذ إلى المعنى في ضوء الممارسات التنظيرية عند النقاد

في هذا المبحث رصدٌ لممارسات النقاد التنظيرية في الكلام عن المآخذ إلى المعاني، والتعرف عليها في ضوء كلامهم، وتحديد جهات النظر إليها، وبيان أهميتها في الكشف عن محاسن الكلام، وهذه جملة من كلامهم عن المآخذ إلى المعاني تبدأ برأي المبرد في كتابه الكامل، فقدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر، فالسّري الرَّفّاء في كتابه المحب والمحبوب، فالآمدي في الموازنة، فالقاضي الجرجاني في الوساطة، وتنتهي إلى أبي هلال العسكري في الصناعتين.

أولا: المأخذ إلى المعنى عند المبرد(٢٨٥هـ):

يرى المبرد أن ألفاظ العرب البينة القريبة المفهمة، الحسنة الوصف، الجميلة الرصف من أسباب قرب المأخذ إلى المعنى، من ذلك قول الحطيئة:

وذاك فتى إن تأته في صنيعةٍ إلى ماله لا تأته بشفيع

وكذلك قول عنترة:

يخبرك من شهد الوقيعة أنني أغشى الوغى وأعف عند المغنم

وكما قال زهير:

على مكثريهم رزق من يعتريهم وعند المقلين السماحة والبذل»[1]

كما يرى أن طبع المنشئ للبيان، وعلمه بالفصاحة وجوهر الكلام، من سبل إخراجه أحسن مخرج وفي ذلك يقول «ومما يستحسن لفظه ويستغرب معناه، ويحمد اختصاره قول أعرابي من بني كلاب:

تَحِنُّ فتبدي ما بها من صبابةٍ وأُخْفِي الذي لولا الأسى لقضاني

(١) الكامل في اللغة والأدب: ٢٧/١ ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي – القاهرة، الطبعة: الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م.

يريد: لقضى علي، فأخرجه لفصاحته وعلمه بجوهر الكلام أحسن مخرج»[1].

ومن الشعر الحسن قريب المأخذ عنده قول مخيس بن أرطاة الأعرجى:

عرضت نصيحة مني ليحيى فقال: غششتني، والنصح مرُّ
وما بى أن أكون أعيب يحيى، ويحيى طاهرُ الأثواب بَرُّ
ولكن قد أتاني أن يحيى يُقال عليه فى بَقْعاء شرُّ
فقلت له: تجنب كلَّ شىءٍ يُعابُ عليك، إنَّ الحُرَّ حُرُّ

يقول المبرد: فهذا كلام ليس فيه فضل عن معناه[2]، يعني أن الألفاظ على قدر المعاني، لا تقصر عنها، ولا تزيد، وهذا من أسباب قرب المأخذ إلى المعنى عنده على المستوى اللفظي.

وورد في كلامه أيضا ما يدلُّ على أن مراعاة حسن النظم من أسباب قرب المأخذ إلى المعنى، فالمعنى الذي يترتب لفظه وفق ترتب معناه في الذهن، يكون بذلك قريب المأخذ، والمعنى الذي يكدُّ الفكر للوصول إلى مغزاه يكون بعيد المأخذ، من ذلك قوله في شعر الفرزدق:«ومن أقبح الضرورة، وأهجن الألفاظ، وأبعد المعاني قوله:

وما مثله في الناس إلا مملكاً أبو أمه حي أبوه يقاربه

.. فدل على أنه خاله بهذا اللفظ البعيد، وهجنه بما أوقع فيه من التقديم والتأخير: حتى كأن هذا الشعر لم يجتمع في صدر رجل واحد مع قوله حيث يقول:

تصرم مني ود بكر بن وائلٍ وما كاد مني ودهم يتصرم
قوارص تأتيني ويحتقرونها وقد يملأ القطر الإناء فيفعم

---

(١) السابق: ٣١/١.

(٢) الكامل في اللغة: ٤٠/١.

وكأنه لم يقع ذلك الكلام لمن يقول:

والشيب ينهض في السواد كأنه ليل يصيح بجانبيه نهار

فهذا أوضح معنى، وأعرب لفظٍ، وأقرب مأخذٍ»[١].

من خلال هذه الشواهد يتضح أن قرب المأخذ إلى المعنى عند المبرد يتوقف على قرب الألفاظ أي إفهامها وإبانتها عن معانيها، مع مجيئها على قدر المعاني، بالإضافة إلى حسن الرصف، وجودة الوصف، وسلامة الطبع، وعلم المتكلم بالفصاحة وجوهر الكلام.

ثانيا: المأخذ إلى المعنى عند قدامة بن جعفر (٣٣٧هـ): وضع قدامة مبادئ عامة لتسهيل المآخذ إلى المعاني، من ذلك «أن يكون **المعنى مواجهاً للغرض المقصود، غير عادل عن الأمر المطلوب**»[٢]، كما دعا إلى البلوغ في الجودة إلى الغاية المطلوبة، فقال: «وعلى الشاعر إذا شرع في أي معنى كان، من الرفعة والضعة، والرفث والنزاهة، والبذخ والقناعة.. وغير ذلك من المعاني الحميدة والذميمة: أن يتوخى **البلوغ من التجويد في ذلك إلى الغاية المطلوبة**»[٣].

والغاية المطلوبة عنده هي أن الشاعر إذا أخذ إلى المعنى مأخذ المبالغة مثلا، فعليه أن يصل في هذا المأخذ إلى منتهى الغاية، وألا يترك لقائل بعده مقالا، ويُفصح قدامة عن مذهبه في ذلك قائلا: «ولنرجع إلى ما بدأنا بذكره من الغلو والاقتصار على الحد الأوسط، فأقول: **إن الغلو عندي أجود المذهبين**، وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديماً، وقد بلغني عن بعضهم أنه قال: **أحسن الشعر أكذبه**.. ومن أنكر على مهلهل والنمر وأبي نواس قولهم المقدم ذكره، فهو مخطئ، لأنهم وغيرهم – ممن ذهب

---

(١) السابق: ٢٧/١.

(٢) نقد الشعر، قدامة بن جعفر: ١٧، مطبعة الجوائب – قسطنطينية، الطبعة: الأولى، ١٣٠٢هـ.

(٣) نقد الشعر: ٤.

إلى الغلو – إنما أرادوا به المبالغة، وكل فريق إذا أتى من المبالغة والغلو بما يخرج عن الموجود ويدخل في باب المعدوم، **فإنما يريد به المثل وبلوغ النهاية في النعت، وهذا أحسن من المذهب الآخر**، فإن قول النابغة الجعدي في معنى قول النمر على مذهب الاقتصاد ولزوم الحد الأوسط:

وَقَدْ أَبْقَتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ مِنِّي كَمَا أَبْقَتْ مِنَ السَّيْفِ الْيَمَانِي

دون قول النمر، لأن في قول النمر دليلاً قوياً على أن ما بقي منه أكثر مما بقي من النابغة، وقول النمر هو:

أبقى الحوادثُ والأيامُ من نَمِرٍ أسْبَادَ سيفٍ قديمٍ إثرُه بادِ

تظلُّ تحْفِرُ عنه إن ضَرَبْتَ بِهِ بَعْد الذراعينِ والسَّاقينِ والهادِي[1]

وهذا مما خالف فيه قدامة النقاد، وقد استحسن ما عابوه من مثل قول أبي نواس:

وأخفْت أهل الشركِ حتى أنهُ لتخافُك النطفُ التي لم تُخْلَقِ

فالمأخذ إلى المعنى على هذا التصور لا تحده حدود ما دام متجها إلى الغرض المقصود غير عادل عن الأمر المطلوب.

ثالثا: المأخذ إلى المعنى عند السريّ الرَّفَّاء(٣٦٢هـ):

استهل الشاعر السري الرفاء كتابه: (المحب والمحب والمشموم والمشروب) بحديث نظري عن المعاني، بيَّن من خلاله أهمية كشف المعنى والأخذ إليه من المداخل اللطيفة، والمسالك الدقيقة، وأن هذا من جماع الجودة، وإحكام النظام، وأسير في البلاغة والبراعة، وألطف في الصناعة، وفي ذلك يقول: «الألفاظ للمعاني بمنزلة المعارض للجواري، فأجمعها لأقسام الجودة، وأنظمها لأحكام الإصابة، وأمشاها في طريق البلاغة والبراعة، وآخذها بحسن السياق ولطف الافتنان في الخطابة، **ما شفع إلى المخرج السهل محاسن اللفظ الجزل، وقرن بدقة المعنى واقتضاب البديع، غموض المسلك ولطافة**

(١) السابق: ١٧، ١٨.

المدخل، وكان متناسباً في الرقة والسهولة، متشابهاً في حلاوة النسج والعذوبة، بكسوة رشيقة، ودماثة تامة وخلابة تسحر القلب..»[1].

فيرى أن حسن المخرج يكون بالنظر في سهولته مع جزالة ألفاظه، فإذا ما خرج الكلام سهلا رسلا، وخلت ألفاظه من الجزالة في سياق جزل، لم نحكم له بحسن الصناعة، وكذلك يرى أن صنعة البديع –وهم يعنون بها المحسنات البديعية والصور البيانية– ينبغي أن تكون غامضة المسلك، يعني أن الشاعر أو المتكلم إذا شبه أو استعار أو مثَّل أو كنَّى أو طابق أو جانس، أو غير ذلك، ينبغي له أن يسلك مسلكا دقيقا غير ظاهر ولا منكشف، حتى يُنسب المعنى إليه، فالسرِّي الرفاء شاعر قبل أن يكون منظرا أو عالما، يعرف أثر الصنعة في نسبة المعاني إلى الأوْلى بها حتى وإن لم يسبق إليها، وغموض المسلك لا يعني تعمية المعنى، بل يعني النظر إليه وأخذه من طريق خفي يهزّ السامع حتى يشهد لصاحبه بالتفوق والأحوزية، ويشترط أن تتشابه الألفاظ والتراكيب في حلاوة النسج والعذوبة، وذلك كما يقول حازم–وسيأتي كلامه في المبحث الثاني– مثل استعمال (السالفة والجيد) في النسيب، واستعمال (الهادي والكاهل) في الفخر والمديح ونحوهما، واستعمال (الأخدع والقذال) في الذم.

رابعا: المأخذ إلى المعنى عند الآمدي:

يبدو من كلام الآمدي في حديثه عن مآخذ المعاني أنه يُخالف قدامة بن جعفر فيما ذهب إليه من تفضيل استقصاء المعاني والغلو فيها، ويرى أن من صفة المطبوعين أنهم يأخذون عفو المعاني والإلمام بها دون إغراق أو استقصاء، وهذه عبارته: «والمطبوعون وأهل البلاغة لا يكون الفضل عندهم من جهة استقصاء المعاني والإغراق في الوصف، وإنما يكون الفضل عندهم

(١) المحب والمحبوب والمشموم والمشروب، السري الرفاء: ١/٣، تحقيق: مصباح غلاونجي، دمشق، ١٤٠٧هـ.

في الإلمام بالمعاني وأخذ العفو منها كما كانت الأوائل تفعل مع جودة السبك **وقرب المأتى**، والقول في هذا قولهم وإليه أذهب»[١]، وكان هذا الاتجاه واضحا لتفضيله شعر البحتري، وإن لم يصرح بذلك.

ويرى أن المعنى الصحيح إذا اتفق له طبع نقي، فجاء به كما هو كان إلى أحسن وأجمل، من ذلك قول البحتري:

وما أعرف الأطلال من بطن توضح لطـول تعفيهـا، ولكـن إخالهـا[٢]

وعُني الآمدي بالمستويين التركيبي واللفظي، وأهميتهما في الكشف عن المآخذ إلى المعاني، وفي ذلك يقول: «وينبغي أن تعلم أن سوء التأليف ورديء اللفظ يذهب بطلاوة المعنى الدقيق ويفسده ويعميه حتى يحتاج مستمعه إلى طول تأمل، وهذا مذهب أبي تمام في عظم شعره، **وحسن التأليف وبراعة اللفظ** يزيد المعنى المكشوف بهاءً وحسناً ورونقاً **حتى كأنه قد أحدث فيه غرابة لم تكن، وزيادةً لم تعهد**، وذلك مذهب البحتري، ولذلك قال الناس: لشعره ديباجة، ولم يقولوا ذلك في شعر أبي تمام، **وإذا جاء لطيف المعاني في غير بلاغة ولا سبك جيدٍ ولا لفظ حسن كان ذلك مثل الطراز الجيد على الثوب الخلق**، أو نفث العبير على خد الجارية القبيحة الوجه»[٣]، ثم يضع الآمدي قاعدة عامة بعدما انتهى من الموازنة بين الشاعرين يؤكد من خلالها على أهمية المستوى التركيبي، وأثره في حسن المأخذ إلى المعنى، فيقول: «فصحة التأليف في الشعر وفي كل صناعة هي أقوى دعائمه بعد صحة المعنى، فكل من كان أصح تأليفاً كان أقوم بتلك الصناعة ممن اضطرب تأليفه»[٤]، ومن خلال هذه الإشارات الملخصة لرأي الآمدي، يتبين أن سلامة

---

(١) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، الآمدي :٥٢٥/١، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف – الطبعة الرابعة.

(٢) السابق: ٥٢٣/١.

(٣) السابق نفسه: ٤٢٥/١.

(٤) السابق: ٤٢٩/١.

الطبع، وحسن السبك وبراعة الألفاظ، والإلمام بالمعاني وأخذ العفو منها، هو السبيل إلى قرب المأتى، وحسن المأخذ إلى المعنى.

خامسا: المأخذ إلى المعنى عند القاضي الجرجاني (٣٩٢هـ):

يجمع القاضي الجرجاني في نقده للمأخذ إلى المعنى بين المستويين التصويري والتركيبي، ويرى أن صنعة البديع المطبوعة من عوامل تسهيل المآخذ إلى المعاني، وأن ذلك من أسباب ارتياح النفس والطرب، ولا يقصر قرب المأخذ إلى المعنى على المطبوعين وحدهم كما مرّ عند الآمدي وكما سيأتي عند أبي هلال العسكري، من ذلك قوله في أبيات أبي تمام، وقد تغزَّل:

دعْني وشُربَ الهوى يا شارب الكاسِ فإنني للذي حسيته حاسي
لا يوحِشنّك ما استعجمتَ من سَقمي فإنّ منزلَه من أحسن الناس
من قطْع ألفاظِه توصيلُ مَهلكَتي ووصْل ألْحاظه تقطيعُ أنفاسي
متى أعيش بتأميلِ الرّجاء إذا ما كان قطعُ رجائي في يديْ ياسي

يقول: فلم يخْل بيت منها من معنى بديع وصنعة لطيفة؛ طابق وجانس، واستعار فأحسن، وهي معدودة في المختار من غزَله، وحقّ لها؛ فقد جمعت على قصرِها فنوناً من الحُسن، وأصنافاً من البديع، ثم فيها من الإحكام والمتانة والقوة ما تراه.

ثم يذكر أبيات أخرى لبعض الأعراب، يقول فيها: ولكنّني ما أظنك تجدُ له من سَورة الطرب، وارتياحِ النفس ما تجده لقول بعض الأعراب:

أقول لصاحبي والعيسُ تهوي بنا بين المُنيفة فالضِّمار
تمتّعْ من شَميم عَرارِ نجْدٍ فما بعْد العشيّة من عَرارِ
ألا يا حبّذا نفَحاتُ نجْدٍ وريّا روضهِ غِبَّ القِطارِ
وعيشك إذ يحُلّ القوم نجْداً وأنتَ على زمانِك غيرُ زارِ
شُهورٌ ينقضين وما شعرْنا بأنْصافٍ لهنّ ولا سِرارِ
فأما ليلُهنّ فخيرُ ليلٍ وأقصر ما يكون من النهار

فيقول: فهو كما تراه بعيد عن الصنعة، فارغ الألفاظ، سهل المأخذ، قريب التناول.

وصف القاضي الجرجاني هذه الأبيات بأربع صفات:

البعد عن الصنعة، أي المتكلفة، كما في البيت الأخير، حيث قسَّم وطابق بين الليل والنهار، والاستعارة البديعة في قوله: (والعيس تهوي)، حيث شبه العيس بالريح أو نحوها في الإسراع، والكناية عن طيب العيش بانقضاء الشهور دون الإحساس بانتصافها أو اكتمالها، هذا كله من الصنعة، والتعبير باسم الفاعل (زارٍ) والعدول عن (مُزْرٍ)، فالقاضي يلفتنا إلى الفرق بين صنعة المطبوعين وصنعة غيرهم، صنعة الأعراب تجري مع الطبع لا تكاد تتبينها إلا بالتدقيق والتمحيص، وهذا من أسباب سورة الطرب كما ذكر.

وقوله: فارغ الألفاظ، وصف لقربها من معانيها، وهي التي قال عنها الجاحظ في وصف صناعة الكتاب: وتخلصهم باللفظ السهل القريب إلى المعنى الغامض الخفي، ففراغها المقصود به خلوصها للمعاني، وعدم تكدير صفو المعنى بالتقصير عنه، فلكل معنى لفظ هو الأحق به كما يقول عبد القاهر، وهذا لا يكون إلا بسهولة المأخذ وقرب التناول، فإذا استعار أو شبه أو طابق أو جانس لم يخرج عن وادي المعنى الذي هو فيه، فيكون المشبه به أو المستعار منه قريب التناول من المشبه أو المستعار له، كما في استعارة (تهوي) للعيس، فالشاعر في سياق وصف جمال الطبيعة في نجد، وتشبيه العيس بالريح قريب المأخذ والتناول من ذلك الوادي، وتكرار قوله: (عرار) وهو النبت الطيب، وإعادته بالاسم الظاهر، عدولا عن المأخذ القريب؛ لأن الاسم إذا ذكر ظاهرا وأريد ذكره ثانيا كان الأولى أن يشار إليه بالضمير، ولكنه عدل عن ذلك لإظهار تعلقه بالعرار، وبيان علة تمتعه بالشميم، وأنه إذا فارق نجدًا فارق العرار، فقد يكون العدول عن المأخذ القريب إلى المعنى، لعلة أبلغ كما سيأتي عند المرزوقي.

وفي سياق آخر يُشير القاضي الجرجاني إلى حسن المأخذ فيقول: وقد أخذ أبو الجُوَيرية بيتي الخنساء **أحسن مأخذ**، وجمعهما في بيت استوفى فيه معنييها. قالت الخنساء:

وما بلَغت كفُّ امرئٍ متناول من المجد إلا والذي فيك أطوَلُ
وما بلغ المُهدون نحوك مِدحَة وإن أطنَبوا إلا وما فيك أفضلُ

فقال أبو الجُويرية:

يزيد على سرْوِ الرجال بسرْوِه ويقصر عنه قولُ مَنْ يتمدّح[1]

وحسن المأخذ هنا في الإيجاز مع استيفاء المعنى، فمبنى بيتي الخنساء على بيان تفوق أخيها على الرجال في الشرف والمروءة، وتقصير المادحين عن مدحه أبدا، وأخذت إلى هذا المعنى طريق النفي والاستثناء، فطال الكلام، أما أبو الجويرية، فجمع بيتها الأول في شطر **(يزيد على سرْوِالرجال بسرْوِه)** والسَّرو: المروءة والشرف[2]، وجمع البيت الثاني في شطر **(ويقصر عنه قولُ مَنْ يتمدّح)**، والمأخذ إلى المعنى عنده، هو الإيجاب والنفي أيضا؛ لأنه أثبت له زيادة الشرف، ونفاه عن غيره، كما أثبت قصور القول عن مدحه، ونفى الوفاء بمدحه بمفهوم المخالفة، ولكن القصر هنا لم يرد بما وإلا، ولا بطريق من طرق القصر الاصطلاحية، وإنما أخذ إلى المعنى من طريق القصر غير الاصطلاحي، وطابق وقابل، واصطفى المأخذ الأوفى.

ومن خلال إشارات القاضي الجرجاني يتبين أن جودة الصناعة، واصطفاء الألفاظ، وطرح فضول الكلام، باصطفاء أخصر الأساليب إلى المعنى من أسباب تسهيل المآخذ وتقريب التناول.

---

(١) ينظر: الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي عبد العزيز الجرجاني: ١٩١، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

(٢) ينظر: لسان العرب، لابن منظور : سرا، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ.

سادسا: المأخذ إلى المعنى عند أبي هلال العسكري(٣٩٥هـ):

ارتبط مفهوم قرب المأخذ إلى عند أبي هلال العسكري، بالقول على البديهة، كما أنه جعله صفة للمطبوع دون غيره، ويتضح ذلك من قوله، وقرب المأخذ: «أن تأخذ عفو الخاطر، وتتناول صفو الهاجس، ولا تكدّ فكرك، ولا تتعب نفسك، وهذه صفة المطبوع»[١]، وهذا ليس تعريفا لقرب المأخذ بقدر ما هو وصف للقول على البديهة، دون إعداد مسبق أو فكر وروية، والشواهد التي أوردها دالة على ذلك، يقول: رُوي أن الرشيد، أو غيره، قال لندمائه– وقد طلعت الثريّا:

أمـــــــا تـــــــرون الثريّـــــــا؟

فقال بعضهم:

كأنهـــــــا عقـــــــد ريـــــــا

ومنه قول بعضهم لأبى العتاهية:

عـــــــذب المـــــــاء فطابـــــــا

فقال أبو العتاهية:

حبّـــــــذا المـــــــاء شـــــــرابا

وقال بشار، وقد حبسه يعقوب بن داود على بابه:

طـــال الثّـــواء علـــى رســـوم المنـــزل

فرفع إليه قوله، فقال:

فـــإذا تشـــاء أبـــا معـــاذ فارحـــل

فهذه الشواهد قيلت على البديهة، وهي قريبة المآخذ إلى معانيها، ولكن ليس قرب المأخذ مقصورا على هذه الصورة فحسب، ولعل أبا هلال وجد فيها ما يعينه على توضيح فكرته فاقتصر عليها، وإنما كانت قريبة المآخذ إلى

(١) كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، لأبي هلال العسكري:٤٩، وما بعدها، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – بيروت، ١٤١٩ هـ.

معانيها؛ لسهولة ألفاظها مع تشابهها لقسيماتها، يقول ابن رشيق: في قول أبي العتاهية: (حبذا الماء شرابا): «**فأتى بالقسيم رسلاً شبيهاً بصاحبه، وذلك هو الذي أعوز القوم لا وزن الكلام**»[1]، ولذلك قصر أبو هلال هذا الانسجام والتوافق على المطبوع دون غيره.

ويقول أبو هلال، ومن قرب المأخذ أنّ الجاحظ أو غيره قال للجماز: أريد أن أنظر إلى الشيطان، فقال: انظر فى المرآة[2].

وإنما كان قوله: انظر فى المرآة، قريب المأخذ؛ لأنه رام السخرية، فلم يذهب بعيدا عن وادي المعنى، فأعاد على الجماز لفظه: (انظر)، ثم عدَّى ذلك الفعل إلى المرآة، فأحاله على صورته هو، وذلك أقرب ما يكون منه، وإن لم ينظر.

من خلال هذه الإشارات عند أبي هلال يتبين موافقته للآمدي في أن مآخذ المطبوعين أقرب من مآخذ غيرهم إلى معانيهم، وعُني أبو هلال بالمستوى اللفظي والتركيبي، وجاء تعريفه لقرب المآخذ مقتصرا على القول بالبديهة، فهو أشبه بوصف البديهة من تعريف قرب المأخذ.

هذه الممارسات التنظيرية لبيان المآخذ إلى المعاني عند النقاد، وليست هي كل ما عندهم في هذا الباب، ولكنها تفي بالغرض من الدراسة، ولذا اقتصرت عليها، بغية الإيجاز، وسعيا مع طبيعة البحث، وفيما يأتي رصد لبعض ممارستهم التطبيقية في هذا الجانب أيضا، والتي تفي باستنباط منهجهم فيه بإذن الله تعالى.

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق: ١٩١/١، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، الطبعة الخامسة ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م.

(٢) الصناعتين: الصفحة السابقة وما بعدها.

المبحث الثاني

المأخذ إلى المعنى في ضوء الممارسات التطبيقية عند النقاد

تهدف الدراسة في هذا المبحث إلى رصد ممارسات النقاد التطبيقية في بيان المأخذ إلى المعنى، حتى يتيسر في المبحث القادم استنباط الخطوات المنهجية، ثم الإفادة منها في التطبيق على نصوص مختارة، وهذه جملة من تطبيقاتهم، تبدأ بأبي علي الفارسي في كتابه المسائل البصريات، فالمرزوقي في شرح ديوان الحماسة، فابن رشيق في العمدة، فعبد القاهر في الأسرار والدلائل، وتنتهي إلى حازم القرطاجني في منهاج البلغاء.

أولا: المأخذ إلى المعنى عند أبي علي الفارسي(٣٧٧هـ):

في سياق تفريق أبي علي الفارسي بين الاستفهام بالهمزة والاستفهام بـ(هل)، وردت محاولة تطبيقية للفرق بين مخرج الاسترشاد ومخرج التقرير، من خلال استنطاق دلالة الهمزة، وأن مخرج الكلام من طريقها مخرج تقريري، وليس مخرج استعلام أو تفهُّم، وذلك في قوله: «لا تعادل "أمْ" حرفاً من حروف الاستفهام سوى الألف، فتكون معه بمنزلة "أيهما أو أيهم"، وإنما جاز ذلك في الألف ولم يجز في "هل"؛ لأن الألف قد تقع حيث تريد الإثبات والتقرير ولا تريد التفهم والاستعلام. ألا ترى أنك تقول: (أليس الله بكافٍ عبده)[١] وأنت مقرر، ولا يكون ذلك في "هَلْ" فلما كنت في الاستفهام بالألف و"أمْ" مدعياً لأحد الشيئين أو الأشياء مثبتاً له لم يجز أن يقع سوى الألف لذا المعنى، ولم يجز أن تقع "هلْ"، لأنك لا تقرر بها إنما تستقبل بها الاستفهام، ألا ترى أنك لو قلت: "هل طرباً" موضع: أطرباً وأنتَ قِنَّسريٌّ، لم يجز، فلذلك لم تعادل "أمْ" إذا كانت مع الحرف بمنزلة أيهما، فإن قلت: فقد قال تعالى: (هل يسمعونكم إذ تدعون)[٢]، فإن هذا ليس بتقرير، وإنما هو استقبال استفهام، وقاله إبراهيم

(١) الزمر: من الآية: ٣٦.

(٢) الشعراء: ٧٢.

عليه السلام مخرجاً له مخرج الاسترشاد؛ ليكون ذلك داعيةً لهم إلى النظر، وكان هذا أجود لهذا المعنى المراد. ألا ترى أنه لو قال: (أيسمعونكمْ) لكان يجوز أن يُظن أنهم يسمعونهم، وأنه متابع لهم على ذلك، وأن مخرج الكلام التقرير. فإذا خرج مخرج الاسترشاد لم يدل على الموافقة ولا على التقرير، وكان ذلك أدعى لهم إلى النظر في شأنها وأنها لا تسمع ولا تنفع ولا تضر، ألا ترى أنه إنما أراد منهم أن ينظروا في شأنها، وأنه ناظرهم على ذلك في هذه الآية»(١).

ومن خلال هذه المحاولة يتبين أن المآخذ إلى المعاني تختلف على الأسلوب الواحد باختلاف أدواته وطرقه، ومرَّ بنا نحو من ذلك في ملاحظة القاضي الجرجاني لمأخذ أبي الجويرية إلى معنى الخنساء، واستظهرت منه أن أبا الجويرية إنما حسن مأخذه إلى المعنى لمَّا ترك مأخذ القصر الاصطلاحي وأخذ إلى المعنى من طريق القصر غير الاصطلاحي.

ثانيًا: المأخذ إلى المعنى عند المرزوقي(٤٢١هـ):

بحث المرزوقي في المآخذ إلى المعاني يتجه تارة إلى النظر في التراكيب، ثم استيضاح المعاني في الأعراف، ثم توجيه المأخذ على حسب هذه الأعراف، من ذلك قوله: وقال رجل من بني قريع:

متى مَايَر النـاسُ الغنيَّ وجارُه فقيرٌ يقولوا: عاجز وجليد
وليس الغنى والفقر من حيلة الفتى ولكن أحاظ قُسِّمتْ وجدود

يقول المرزوقي: أخرج هذا الكلام مخرج الإنكار، ثم يُبيِّن السبب في سلوك الشاعر هذا المسلك، فيقول: لِما تعوده الناس في الحكم على الأغنياء والفقراء، فيقول: مما يقضي به الناس على الغني وإلى جنبه فقير، أن يقولوا: هذا من عجزه أُتِيَ، وهذا لجلادته أُغْنِيَ، ثم يُبيّن خطأ هذا المعتقد، فيقول:

---

(١) المسائل البصريات، أبو علي الفارسي: ١/٧١٨-٧٢٠، تحقيق: محمد الشاطر أحمد محمد أحمد، مطبعة المدني، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ هـ

وهذا خطأ، لأن الغنى والفقر مما قدر الله تعالى وأجرى به قسمه في خلقه، وليس المعتمد فيه على احتيالهم، وسعيهم واجتهادهم، لكنها جدود وحظوظ درجوا عليها، وخلقوا لها، على ماعرف الله تعالى من صالح خلقه(١).

ومن ذلك توجيهه قول جؤاس الكلبي:

إذا افتخرَ القيسيُّ فاذكر بلاءه بزرَّاعةِ الضحاك شرقي جَوْبَرا

يقول المرزوقي: وقوله إذا افتخر القيسي فاذكر بلاءه، يعيرهم ما كان منهم من التقصير والقصور في ذلك الموضع. وأخرج الكلام مخرج الهزء، لأنهم قصروا ولم يبلغوا؛ لذلك قال: اذكر بلاءه(٢).

المرزوقي يوضح علة العدول عن المأخذ القريب:

وتارة ينظر المرزوقي إلى إيثار الشاعر لمأخذٍ أبعد إلى المعنى، وتركه لمأخذٍ قريب، ثم يُبين العلة في ذلك، وهذا جيد في منهجية نقد المآخذ إلى المعاني، من ذلك قوله في بيتي سبرة بن عمرو الفقعسي:

أتنسى دفاعي عنك إذ أنت مسلمٌ وقد سال من ذلٍ عليك قراقر

ونسوتكم في الروع بادٍ وجوهها يخلن إماءً، والإماء حرائر

يقول المرزوقي: «ولو قال يخلن إماءً وهن حرائر لكان مأخذ الكلام أقرب، لكنه عدل إلى " والإماء حرائر "، ليكون الذكر به أفخم، والاقتصاص أشنع وأعظم»(٣).

ثالثا: المأخذ إلى المعنى عند ابن رشيق(٤٦٣هـ):

أشار ابن رشيق في كلمته السابقة إلى أن الذي أعوز القوم ليس الوزن وإنما الإتيان بالقسيم رسلا شبيها بصاحبه، وفي سياق حديثه عن أغراض الشعر وصنوفه ذكر وصية أبي تمام للبحتري، والتي قال فيها: «كنت في

(١) ينظر: شرح ديوان الحماسة، المرزوقي: ٨٠٦، وضع فهارسه العامة: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣م.

(٢) شرح ديوان الحماسة: ١٠٤٣، وما بعدها.

(٣) السابق: ١٧٤.

حداثتي أروم الشعر، وكنت أرجع فيه إلى طبع، ولم أكن أقف على **تسهيل مأخذه، ووجوه اقتضائه**، حتى قصدت أبا تمام؛ فانقطعت فيه إليه، واتكلت في تعريفه عليه، فكان أول ما قال لي: يا أبا عبادة، تخير الأوقات وأنت قليل الهموم، صفر من الغموم..»[1]، فالبحتري يقرُّ بعدم وقوفه على تسهيل المآخذ ووجوه اقتضائها، حتى استقام له المنهج.

ابن رشيق يوضح كيفية تسهيل المآخذ: ويقول ابن رشيق في باب آداب الشاعر: «فقد وجدنا الشاعر من المطبوعين المتقدمين **يفضل أصحابه برواية الشعر، ومعرفة الأخبار، والتلمذة بمن فوقه** من الشعراء، فيقولون: فلان شاعر راوية، يريدون أنه **إذا كان راوية عرف المقاصد، وسهل عليه مأخذ الكلام، ولم يضق به المذهب، وإذا كان مطبوعاً لا علم له ولا رواية ضل واهتدى من حيث لا يعلم، وربما طلب المعنى فلم يصل إليه وهو ماثل بين يديه**؛ لضعف آلته: كالمقعد يجد في نفسه القوة على النهوض فلا تعينه الآلة، وقد سئل رؤبة بن العجاج عن الفحل من الشعراء، فقال: هو الراوية، يريد أنه إذا روى استفحل»[2].

ابن رشيق يطبق منهج المأخذ إلى المعنى

وترد لابن رشيق محاولة تطبيقية في بيان قرب المأخذ إلى المعنى في حديثه عن التسهيم والإرصاد وتمكن القوافي، وذلك فيما حُكي «عن ابن أبي ربيعة عندما جلس إلى ابن عباس رضي الله عنه، فابتدأه ينشده:

تشـــــــط غـــــــداً دار جيراننـــــــا

فقال ابن العباس:

وللـــــــدار بعـــــــد غـــــــد أبعـــــــد

(١) العمدة: ١١٤/٢.

(٢) العمدة: ١٩٧/١.

نظر ابن رشيق إلى معنى سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه، (وللدار بعد غد أبعد)، وأخذ يحاور أسباب الحسن في هذا المعنى، فقال: «فأنت ترى كيف طبق المفصل، وأصاب شاكلة الروي، لما كان المعنى يقتضي زيادة البعد كلما طال العهد بأيام الموسم، واجتنب " أشط " لأنه لا يتزن ولايستعمل، وعدا عن أن يقول " أبرح " وما شاكله رغبة في قرب المأخذ، وسلوكاً لطريق الفصاحة، وإتيانا بالمتعارف المعتاد المتعاهد»[١].

من خلال هذه الإشارات يتبين أن ابن رشيق يتفق مع القاضي الجرجاني في عدم اقتصار قرب المآخذ إلى المعاني على المطبوعين، بل إن المطبوع إن لم يكن راوية ضل واهتدى من حيث لا يعلم، فالرواية عنده خير هادٍ إلى المآخذ القريبة، كما أن العناية بمأم المعنى ومقصده، والدقة في تخيُّر الألفاظ الرسلة الشبيهة بأصحابها من أسباب قرب المأخذ إلى المعنى.

رابعا: المأخذ إلى المعنى عند عبد القاهر الجرجاني(٤٧١هـ):

المأخذ والحاجة إلى التأول عند عبد القاهر:

المأخذ إلى المعنى في كلام الإمام عبد القاهر الجرجاني يرتبط تارة بالحاجة إلى التأول، فمن المعاني «ما يقرب مأخذه ويسهل الوصول إليه، ويعطى المقادة طوعا... ومنه ما يحتاج فيه إلى قدر من التأمل، ومنه ما يدق ويغمض حتى يحتاج في استخراجه إلى فضل روية ولطف فكرة»[٢]، وهذه الفكرة من أهم الطرق الموصلة إلى بيان المأخذ إلى المعنى، وتحديد طبقته في القرب والبعد، يقول عبد القاهر: «فمما يشبه الذي بدأت به في **قرب المأخذ وسهولة المأتى**، قوله في صفة الكلام: ألفاظه كالماء في السلاسة، وكالنسيم في الرقة، وكالعسل في الحلاوة، يريدون أن اللفظ لا يستغلق ولا

(١) ينظر: السابق: ٣٣/٢.

(٢) أسرار البلاغة: ٩٣، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.

يشتبه معناه ولا يصعب الوقوف عليه»[١]، لأننا نصل من ظاهر اللفظ إلى المعنى المراد بـ«رد شيء إلى شيء بضرب من التلطف، وهو أدخل قليلا في حقيقة التأول، وأقوى حالا في الحاجة إليه، من تشبيه الحجة بالشمس.. وأما ما تقوى فيه الحاجة إلى التأول حتى لا يعرف المقصود من التشبيه فيه ببديهة السماع، فنحو قول كعب الأشقري... كانوا كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها... فهذا كما ترى ظاهر الأمر في فقره إلى فضل الرفق به والنظر... وليس كذلك تشبيه الحجة بالشمس، فإنه كالمشترك البين الاشتراك... قد تجده في كلام العامي. فأما ما كان مذهبه في اللطف مذهب قوله: هم كالحلقة، فلا تراه إلا في الآداب والحكم المأثورة عن الفضلاء وذوي العقول الكاملة»[٢].

مذهب النقاد في مآخذ الحِكَم:

هذا من عجيب ما نقرأه في هذه المسألة، فالحكم المأثورة لم تنل العناية لأجل ما تحمله من معان، وإنما للطف مذهبها الذي لا يستطيعه إلا الكملة، فلو صيغت الحكمة في عبارة رثَّة لما التفت إليها، وفي ذلك يقول صاحب عيار الشعر: «وكم من حكمة غريبة قد ازدريت لرثاثة كسوتها، ولو جلبت في غير لباسها ذلك لكثر المشيرون إليها»[٣].

وعبد القاهر يُطلق لطف المذهب وعلو المأخذ وشدة الشكيمة على هذا النوع، ويطلق قرب المأخذ وسهولة المأتى على المشترك.

منهج عبد القاهر في المأخذ إلى الصورة البيانية:

يفرق عبد القاهر بين مأخذ الاستعارة ومأخذ التشبيه، من حيث إننا لا نستطيع ردّ المعنى في التشبيه إلى الاستعارة إلا بشرط: أن يكون الشبه بين الشيئين مما يقرب مأخذه ويسهل متناوله، ويكون في الحال دليل عليه، وفي

(١) السابق: الصفحة نفسها.

(٢) السابق: ٩٣، وما بعدها.

(٣) عيار الشعر، لابن طباطبا: ١٢، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع، مكتبة الخانجي – القاهرة.

العرف شاهد له، حتى يمكن المخاطب إذا أطلقت له الاسم أن يعرف الغرض ويعلم ما أردت، وكذلك أيضا التمثيل؛ لأنه يتوقف على ذكر الجمل التي يُعقد بها[1]، ويمثّل عبد القاهر لعلو المأخذ بقول الفرزدق:

أبـي أحمـد الغيثـين صعصـعة الـذي متـى تخلـف الجـوزاء والـدلو يمطـر

يقول: أفلا تراه كيف ادعى لأبيه اسم الغيث ادعاء من سلم له ذلك، ومن لا يخطر بباله أنه مجاز فيه، ومتناول له من طريق التشبيه، وحتى كأن الأمر في هذه الشهرة بحيث يقال: أي الغيثين أجود؟ فيقال صعصعة، أو يقال الغيثان، فيعلم أن أحدهما صعصعة[2].

عبد القاهر يقيس قوة التخييل، ويختبر المآخذ المتروكة:

ثم يأخذ الإمام عبد القاهر في بيان المآخذ الأخرى للمعنى، فيقول: وإن أردت أن تعرف مقدار ما له من القوة في هذا التخييل، وأن مصدره مصدر الشيء المتعارف الذي لا حاجة به إلى مقدمة يبنى عليها نحو أن تبدأ فتقول:

أبي نظير الغيث وثان له، وغيث ثان.

ثم تقول: وهو خير الغيثين لأنه لا يخلف إذا أخلفت الأنواء.

هذه المآخذ إلى المعنى ليست في طبقة المأخذ الأول (أبي أحمد الغيثين)، ويعلل لذلك بقوله: فانظر إلى موقع الاسم، فإنك تراه واقعا موقعا لا سبيل لك فيه إلى حل عقد التثنية، وتفريق المذكورين بالاسم.

ثم يكشف علة قصور مأخذ التفضيل- وهو الأقرب إلى مأخذ التثنية- فيقول: وذلك أن أفعل لا تصح إضافته إلى اسمين معطوف أحدهما على الآخر، فلا يقال جاءني أفضل زيد وعمرو، ولا إن أعلم بكر وخالد عندي، بل ليس إلا أن تضيف إلى اسم مثنى أو مجموع في نفسه، نحو أفضل الرجلين،

(١) ينظر: دلائل الإعجاز: ٢٤٣.

(٢) ينظر: السابق نفسه: ٣١٦.

وأفضل الرجال، وذلك أن أفعل التفضيل بعض ما يضاف إليه أبدا، فحقه أن يضاف إلى اسم يحويه وغيره.

عبد القاهر ينقد المآخذ المتروكة:

ثم ينتقل إلى نقد المآخذ الأخرى الممكنة في مثل هذا المعنى، فيقول: وإذا كان الأمر كذلك، علمت أن اللفظ بالتشبيه، والخروج عن صريح جعل اللفظ للحقيقة متعذر عليك، إذ لا يمكنك أن تقول: أبي أحمد الغيث والثاني له والشبيه به، ولا شيئا من هذا النحو، لأنك تقع بذلك في إضافة [أفعل] إلى اسمين معطوف أحدهما على الآخر.

عبد القاهر يقارن بين طبقات المآخذ:

ثم يأتي بشاهد آخر يشتمل على مأخذ كمأخذ الفرزدق، فيقول:

وإذ قد عرفت هذا فانظر إلى قول الآخر:

قد أقحط الناس في زمانهم حتى إذا جئت جئت بالدرر

غيثان في ساعة لنا اتفقا فمرحبا بالأمير والمطر

فإنك تراه لا يبلغ هذه المنزلة، وذلك أنه كلام من يثبته الآن غيثا ولا يدعي فيه عرفا جاريا.

فهذا مأخذه أدنى من مأخذ معنى الفرزدق، وقوة التخييل فيه أضعف، وأدنى منهما قول البحتري:

غيثان إن جدب تتابع أقبلا وهما ربيع مؤمل وخريفه

يقول عبد القاهر: هذا لا يكون مما نحن بصدده في شيء، لأن كل واحد من الغيثين في هذا البيت مجاز، لأنه أراد أن يشبه كل واحد من الممدوحين بالغيث، والذي نحن بصدده، هو أن يضم المجاز إلى الحقيقة في عقد التثنية... ولكن إن ضممت إليه قوله:

فلم أر ضرغامين أصدق منكما عراكا إذا الهيابة النكس كذبا

كان لك ذلك، لأن أحد الضرغامين حقيقة والآخر مجاز[١].

وهكذا ينبغي للناقد التفريق بين مآخذ المعاني البيانية على هذا المنهج، واستظهار درجة القرب أو البعد من خلال قوة التخييل، والنظر في حال وضع الكلام، واختبار المآخذ الممكنة، ونقد كل منها بإزاء المأخذ الذي أخذ منه الشاعر أو المتكلم إلى المعنى.

ووصف الإمام عبد القاهر أبواب التعريض والكناية والرمز والإشارة بأنها أبواب لطيفة المأخذ، وأن الكلام فيها يخرج مخرج الجزالة والفخامة؛ لأن طريق العبارة عنها هو الإثبات، **والصنعة في الإثبات نظير الصنعة في المعاني**، ثم قال: وليس لشعب هذا الأصل وفروعه وأمثلته وصوره وطرقه ومسالكه حد ونهاية[٢].

مأخذ التراكيب والألفاظ عند عبد القاهر:

وتارة يرتبط حديث الإمام عن المأخذ إلى المعنى بالمستوى التركيبي واللفظي، من ذلك وصفه لباب الحذف بقوله: هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر[٣]..

ومن أمثلته في بيان المآخذ إلى المعاني في باب حذف المفعول، قوله في بيت البحتري:

لو شئت لم تفسد سماحة حاتم كرما ولم تهدم مآثر خالد

فليس يخفى أنك لو رجعت فيه إلى ما هو أصله فقلت: "لو شئت أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها"، صرت إلى كلام غث، وإلى شيء يمجه السمع، وتعافه النفس. وذلك أن في البيان، إذا ورد بعد الإبهام وبعد التحريك له، أبدا لطفا ونبلا لا يكون إذا لم يتقدم ما يحرك.

---

(١) دلائل الإعجاز: ٣١٦-٣١٨.

(٢) ينظر: السابق نفسه: ٣٠٦-٣١٣.

(٣) السابق نفسه: ١٤٦.

ثم يقيس تعليق المشيئة في البيت على قوله تعالى: (فلو شاء لهداكم أجمعين)[١]، ثم يُبيِّن أن البلاغة في هذا المعنى أن يُحذف المفعول أبدا.

ثم يعقد بعد ذلك كلاما لإثبات المفعول وأن إظهاره أبلغ من حذفه، يقول: وقد يتفق في بعضه أن يكون إظهار المفعول هو الأحسن وذلك نحو قول الشاعر:

ولو شئت أن أبكي دما لبكيته عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

فقياس هذا لو كان على حد قوله تعالى: (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى)[٢]، أن يقول: "لو شئت بكيت دما"، ولكنه كأنه ترك تلك الطريقة وعدل إلى هذه، لأنها أحسن من هذا الكلام خصوصا. وسبب حسنه أنه كأنه بدع عجيب أن يشاء الإنسان أن يبكي دما. فلما كان كذلك، كان الأولى أن يصرح بذكره ليقرره في نفس السامع ويؤنسه به[٣].

وعلى هذا سار الإمام عبد القاهر في التقديم والتأخير والتعريف والتكير والفروق في الخبر وغير ذلك من أبواب هذا العلم، وكانت تطبيقاته أكثر تفصيلا، فعبَّد الطريق إلى معرفة المآخذ إلى المعاني، وأن التركيب لابد أن يُرى في ضوء غيره من التراكيب المتروكة أو المعدول عنها لاستظهار قوة المعنى أو ضعفه.

خامسا: المأخذ إلى المعنى عند حازم القرطاجني(٦٨٤هـ):

كان حازم القرطاجني معنيا بالبحث في مثيرات المعاني، وأسباب تداعيها، والبواعث المحركة لها، فهو كما يقول الأستاذ الدكتور: محمد أبوموسى: «يبدأ بما في النفس لينتهي إلى الكلام»[٤]، وفي سياق حديث حازم

(١) النحل: من الآية: ٩.

(٢) الأنعام: من الآية: ٣٥.

(٣) ينظر: دلائل الإعجاز: ١٦٣، وما بعدها.

(٤) تقريب منهاج البلغاء لحازم القرطاجني، د/محمد محمد أبو موسى: ٣٤، مطبعة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى٢٠٠٦م.

عن "طرق المعرفة بالمآخذ اللطيفة" أورد كلاما نفيسا عن المآخذ إلى المعاني، ثم فرق بين المنزع والمعنى والأسلوب، وهذا نظر مختلف عن غيره؛ فالمعاني والأساليب عنده ليست غايات يُنتهى إليها، وإنما هي وسائل إلى المنازع، فإذا تحرك الخاطر ونزع نحو أمر ما، تداعت المعاني المناسبة لهذا الأمر، ثم تأتي الأساليب لتترجم عن المعاني التي هي كالأسباب إلى المنازع، وهذه عبارته: «حسن المآخذ في المنازع التي يُنزع بالمعاني والأساليب نحوها، يكون بلطف المذهب في الاستمرار على الأساليب والاطراد في المعاني والإثلاج إلى الكلام من مدخل لطيف، فيوجد للكلام بذلك طلاوة وحسن موقع من النفس لا توجد مع وضعه على خلاف تلك الهيأة والإثلاج إليه من غير ذلك المدخل، وهذا النوع من الكلام لا يكاد يميزه إلا الناقد البصير الجيد الطبع»[1].

هذه العبارة تلخيص نظري لمنهج حازم في استظهار المآخذ إلى المعاني، فيرى أن لطف المذهب في:

الاستمرار على الأساليب

والاطراد في المعاني

والإثلاج إلى الكلام من مدخل لطيف

هذه الثلاثة تُمثل هيئة الكلام التي هي وسيلة للإبانة عن المنازع التي يُنزع نحوها، فإذا لطف المذهب في الثلاثة ورث الكلام طلاوة وحسنا، وهذا المنهج يصلح لنقد قصيدة أو خطبة أو قطعة نثرية، لذلك فإنه يتسم بالشمول، وفي بيانه عن الاستمرار على الأساليب والاطراد في المعاني، يقول: «ولما كان الأسلوب في المعاني بإزاء النظم في الألفاظ وجب أن يلاحظ فيه من حسن الاطراد والتناسب والتلطف في الانتقال عن جهة إلى جهة، والصيرورة من مقصد إلى مقصد، ما يلاحظ في النظم من حسن الاطراد من بعض

(١) منهاج البلغاء، وسراج الأدباء، حازم القرطاجني: ٣٣٤، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، الدار العربية للكتاب، تونس، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٨م.

العبارات إلى بعض ومراعاة المناسبة ولطف النقلة»[١]، ثم يفرق بين ما يقتضي المآخذ اللطيفة والمآخذ الجزلة، فيقول: «فإن النظام اللطيف المأخذ، الرقيق الحواشي، المستعمل فيه الألفاظ العرفية في طريق الغزل، تُخَيِّل رقة نفس القائل. ولو وقع ذلك مثلا في طريقة الفخر لم تُخَيِّل الغرض، بل تُخَيِّل ذلك الألفاظ الجزلة والعبارات الفخمة المتينة القوية. وكذلك لطف الأسلوب ورقته ويخيلان لك أن قائله عاشق، وخشونة الأسلوب وجفاؤه لا يخيلان ذلك نحو أسلوب الفرزدق في النسيب»[٢].

حازم يُقعِّد لاستعمال الألفاظ:

ثم يبيّن أهمية الألفاظ المستعملة في كل أسلوب عرفا، في تقريب المآخذ إلى المعاني، فيقول: «وإنما وجب أن يستعمل في كل طريق الألفاظ المستعملة فيه عرفا، لأن ما كثُر استعماله في غرض ما واختص به أو صار كالمختص لا يحسن إيراده في غرض مناقض لذلك الغرض، ولأنه غير لائق به؛ لكونه مألوفا في ضده وغير مألوف فيه، وذلك مثل استعمال (السالفة والجيد) في النسيب، واستعمال (الهادي والكاهل) في الفخر والمديح ونحوهما، واستعمال (الأخدع والقذال) في الذم»[٣]، وكنا نرجو أن ينطلق حازم من هذا المنهج النظري إلى التطبيق على قصيدة أو قطعة نثرية، ولكنه يُفاجئنا بالتطبيق على بعض التراكيب، وعذره في ذلك أنه كان معنيا في هذا الجزء ببيان حسن المأخذ إلى المعنى، فأورد لذلك شاهدين، بيَّن من خلالهما أن من المعاني ما يُمكن أن تتعدد مآخذه مع تفاوت طبقات الحسن، ومنها ما إذا حاولت أخذه من مأخذ غير الذي أخذ إليه منه، زال عنه الحسن.

(١) السابق : ٣٢٨.

(٢) السابق: الصفحة نفسها.

(٣) منهاج البلغاء:٣٢٨.

حازم يُقسم مآخذ التراكيب:

(أ): ما لو أخذ من غير مأخذه قلَّ حسنه:

يقول حازم: « ولك أن تعتبر حسن المأخذ في المعاني والعبارات عنها بقول أبي تمام: **يا بعد غاية دمع العين إن بعدوا**

فلو أخلى المعنى من التعجب، واقتصر على إيجاب بعد غاية الدمع لبعدهم، لم يكن له من حسن الموقع ما له في هذه العبارة التي أورده فيها، وكذلك أيضاً لو عبر عن معنى التعجب بغير هذه العبارة فقال: (ما أبعد غاية دمع العين إن بعدوا)، لم يكن له –من حسن الموقع ما له في هذه العبارة التي أورده فيها باقتران التعجب بالمعنى في صورة النداء – حسنَ منزعٍ في الكلام ولطفَ مأخذٍ فيه»[1].

حسن المأخذ إلى هذا المعنى كما يرى حازم، هو بناؤه على التعجب أولا، ثم إنه أشار إلى المأخذ الثاني إلى المعنى نفسه في قوله: (واقتصر على إيجاب بعد غاية الدمع لبعدهم)، يعني لو أن أبا تمام أخذ إلى هذا المعنى من طريق الإثبات، فقال: (بعدت غاية الدمع لما بعدوا)، لم يكن في طبقة الحسن الذي أخذ إليه من طريق التعجب.

ثم يبحث عن مأخذ آخر إلى المعنى بالتعجب ذاته، ولكن بطريق (ما) وليس بطريق النداء، فيقترح هذا المدخل: (ما أبعد غاية دمع العين إن بعدوا)، ثم ينقده أيضا لكونه لا يفي بغرض الشاعر من تصوير ما يعتريه من ذهول في حال البعد.

هكذا يعبِّد لنا هذا الناقد البصير طريق نقد المآخذ إلى المعاني، فلا بد من النظر الدقيق إلى كل ما يمكن من مآخذ إلى المعنى، سواء اختلفت هذه المآخذ على أسلوب واحد، أم اختلفت على أساليب متعددة.

---

(١) السابق: ٣٣٥.

(ب): ما لو أخذ من غير مأخذه زال حسنه:

يقول حازم: «وقد يرد من حسن المأخذ ما لا يقدر أن يعبر عن الوجه الذي من أجله ولا يعرف كنهه، غير أنه يعرف مأخذ حسن في العبارة من حيث إنك إذا حاولت تغيير العبارة عن وضعها والإثلاج إليها من غير المهيع الذي منه أثلج واضعها وجدت حسن الكلام زائلا بزوال ذلك الوضع والدخول إليه من غير ذلك المدخل، واعتبر ذلك بقول أبي سعيد المخزومي:

ذنبي إلى الخيل كرِّي في جوانبِها إذا مشى الليثُ فيها مشيَ مختتلِ

فإنك لو غيرت صيغة هذا البيت وأزلتها عن موضعها، فقلت مثلا: (كم أذنبت إلي الخيل بكري في جوانبها) أو غيرته غير هذا التغيير لم نجد له من حسن الموقع من النفس، ما له في صيغته ووضعه الذي وضعه عليه المخزومي»[1].

يصف أبو سعيد نفسه في هذا البيت بحسن السياسة في الحرب والخفَّة في التنقل بين خيل الفرسان، ثم يُظهر تفوقه على غيره في هذا الشأن من خلال قوله: (إذا مشى الليثُ فيها مشيَ مختتلِ)، فهذا الظرف دلالة على الاضطراب في ساحة القتال، وأن العارف الخريت (الليث) بسياسة الحرب يتخبط في المشي فضلا عن الكرّ، فأخذ المخزومي إلى هذا المعنى طريق الإثبات، فبنى جملة (ذنبي إلى الخيل كرّي في جوانبِها) على جعل الكرِّ خبرا للذنب، فدل على اعتياده لهذا الذنب، وأنه لا يكاد يُفارقه، كأنه طبع فيه.

حازم يطرح النقوش الزائدة على المعنى، ويجرده:

ونظر حازم إلى هذا المأخذ لأنه أفاد الثبوت والملازمة بالدلالة عليه بالإثبات بالجملة الاسمية، صارفا نظره عن استعارة الذنب أو بناء المعنى على ما يُشبه (تأكيد المدح بما يُشبه الذم)، لأن هذه الألوان البيانية ليست من

(١) منهاج البلغاء: ٣٣٥.

المآخذ إلى المعنى في الحقيقة، ولذلك فلَّى المآخذ المؤدية إلى الملازمة والثبوت، فلم يجد منها صالحا إلا هذا المأخذ: (كم أذنبت إلى الخيل بكري في جوانبها)؛ لأن إثبات التعدد لا يكون إلا بـ(كم).

هذا هو المأخذ الوحيد في نظر حازم القريب إلى معنى المخزومي، كأنه داخل نفس المخزومي لحظة إنشائه هذا المعنى، وهذا من غايات نقد المآخذ إلى المعنى، ذلك أنك تصل إلى حقيقة المعنى الذي أراده منشئ الكلام، ثم تفلّي المآخذ الجارية مجراه، بعد استبعاد المآخذ النائية عنه، وهذا في الحقيقة عمل صعب وشاق لا يستطيعه إلا الناقد البصير كما قال حازم.

ومما ينبغي التنبيه إليه في هذا السياق أن عمل الناقد في المعنى لا علاقة له بالوزن أو الفنون البلاغية التي تضمنها المعنى، وهي ليست أصيلة فيه، يعني أن لكل تركيب ولكل قالب صيغ فيه المعنى خصوصية أصيلة، وخصائص أخرى ثانوية، فينبغي ألا ينشغل الناقد بالخصائص الثانوية ويدع الخصائص الأصيلة في التركيب، وقد رأينا في هذا الشاهد كيف جرَّد حازم معنى المخزومي إلى بيان إثبات الملازمة لذنبه إلى الخيل، ولم يلتفت إلى النقوش الفنية التي قد تصرفه عن حقيقة المعنى.

المبحث الثالث

المنهج النقدي للمأخذ إلى المعنى استنباطا وتطبيقا

تهدف الدراسة في هذا المبحث إلى استخلاص منهج نقدي للنظر في المآخذ إلى المعاني من خلال تنظيرات النقاد وتطبيقاتهم السابقة، وذلك للإفادة منه في التطبيق على النصوص والموازنة بينها، من خلال هذا المنظور الذي اتضحت أهميته، والحاجة إليه، والتعويل عليه في التفضيل والموازنة والوقوف على منازع الكلام وأغراضه، وذلك على النحو الآتي:

أولا: المنهج النقدي للمأخذ إلى المعنى:

(أ) هذا المنهج يختص بالمعاني لطيفة المسلك دقيقة المدخل، لأنها هي التي تنطوي على الصنعة، أما المعاني المشتركة فمآخذها ظاهرة بينة، ليست في حاجة إلى ذلك.

(ب) اعتماد الذوق في تبيُّن مواطن الحسن في التركيب، فهذا المنهج يبدأ: بالإحساس بحسن الكلام، وطبع المتذوق هو المعتمد عليه، ويدل على ذلك قول حازم: وهذا النوع من الكلام لا يكاد يميزه إلا الناقد البصير الجيد الطبع.

(ج) يقود الإحساس بالحسن إلى تحديد موطن الصنعة، من ذلك وقوف عبد القاهر عند لفظ (الغيثين)، وتوقف ابن رشيق عند روي كلام ابن عباس رضي الله عنه، وغير ذلك مما مر في المبحثين السابقين.

(د) النظر في مداخل الكلام، وهو ما عبر عنه حازم بالإثلاج إلى الكلام من مدخل لطيف، ومنه أيضا النظر في الفروق بين الأدوات التي تختلف على أسلوب واحد كصنيع أبي علي الفارسي، والقاضي الجرجاني في إشارته الخاطفة إلى ذلك.

(هـ) استدعاء الأساليب المتروكة، والمآخذ المعدول عنها، ثم الموازنة بين ما أُخذ إلى المعنى منه، وبين ما عدل عنه، بصرف النظر عن النقوش التي ليست من أصل المعنى، وعن الوزن أيضا.

(و) الاستدعاء يكون على حسب الأقرب فالأقرب من الألفاظ والأساليب والصور، كما صنع حاز القرطاجني في أسلوب التعجب، ذلك أنه لم يترك أسلوب التعجب حتى اختبر مأخذا آخر فيه؛ إشارةً إلى أن القائل إذا اختار أسلوبا ما، فإن هذا يعني أن أقرب المآخذ إلى المعنى من جنس هذا الأسلوب، أو ما يشبهه.

(ز) اختبار الصور البيانية في ضوء القرب والبعد من المعنى، وطبقات التخييل، وإمكانية إحلال صورة محل غيرها.

(ح) تبيُّن دلالة الألفاظ من حيث نزوعها إلى أودية المعاني أو الابتعاد عنها، وكذلك عرضها على ميزان الفضل والاقتصاد، والاعتساف والعفو، والجزالة والرقة، والفراغ والامتلاء كما أشار القاضي الجرجاني، والنظر في كونها رسلة شبيهة بقسيمها أم لا كما ذكر ابن رشيق.

(ط) الربط بين غرض المنشئ للبيان واصطفائه لهذا اللون دون غيره، والتعليل لذلك.

هذه أبرز سمات منهج نقد المأخذ إلى المعنى كما حددها النقاد تنظيرا وتطبيقا، وسأحاول تطبيقها على بعض النصوص التي أشاروا إلى مآخذها في العنصر الآتي بإذن الله تعالى.

ثانيا: تطبيق منهج (نقد المأخذ إلى المعنى) على نصوص مختارة:

يهدف البحث في هذا العنصر إلى تحليل النصوص الموصوفة بقرب المأخذ في ضوء إشارات النقاد ومنهجهم:

١- من ذلك وصف المبرد لقول مخيس بن أرطاة، بقوله: ومن حسن الشعر وما يقرب مأخذه قول مخيس بن أرطاة الأعرجي»:

عَرضْتُ نصيحةً مِنّي ليحيى ... فقال: غششتني، والنُّصحُ مُرُّ
وما بِي أن أكون أعيب يحيى ... ويحيى طاهرُ الأثوابِ بَرُّ
ولكنْ قد أتاني أنَّ يحيى ... يُقال عليه في بَقْعَاء شَرُّ
فقلتُ له: تجَنَّبْ كلَّ شيءٍ ... يُعابُ عليك، إنَّ الحُرَّ حُرُّ

قال المبرد عقيب ذكر هذه الأبيات: فهذا كلام ليس فيه فضل عن معناه(١).

وفي ضوء هذه الإشارة، وفي ضوء وصفه له بالحسن قريب المأخذ أتناول هذه الأبيات.

أولا: من جهة الألفاظ اشترط المبرد لكونها قريبة المأخذ أن تكون مفهمة بينة قريبة حسنة الوصف، وقد توفرت هذه الصفات على ألفاظ الأبيات، فهي تخلو من الغموض والبعد والجزالة، وليس فيها ما يُسأل عنه إلا اسم القرية (بقعاء أو نقعاء)، ، وبقعاء: قرية من قرى اليمن، ويقال: نقعاء.

ثانيا: من جهة الرصف، اشترط فيه المبرد أن يكون حسنا دالا على معناه، خاليا من سوء التأليف، وهذا ما نتبيَّنُه الآن:

قصة هذه الأبيات–كما ذكر المبرد– أن الأعرجي ناصَح رجلا من بني حنيفة يقال له: يحيى، كان يصير إلى امرأة في قرية بقعاء.

وأخذ الأعرجي إلى هذا المعنى مأخذ حكاية الحال، فأخبر عمَّا كان منه بقوله: (عرضتُ نصيحةً مني ليحيى)، وليس في هذا أكثر من بيان ما كان منه ليحيى، وذكر من قول الرجل كلمة واحدة، هي: غششتني، ولم يزد على ذلك، وهي من مواطن الصنعة في البيت الأول، ذلك أنها أوجزت ما كان من الرجل في أوضح بيان، ذلك أنه ليس من المعقول أن يُقال في مثل هذا الموقف كلمة واحدة، ولكن الشاعر وجد فيها ما يكفي لوصف حال صاحبه من عدم الاهتداء بالنصيحة، فعدل الأعرجي عن كلام كثير بتلك الكلمة الموجزة، والوفية بمعناها.

ثم أتى بعد هذه الكلمة بجملة الحال (والنصح مرٌّ)، وهذه أيضا من مواطن الصنعة في البيت الأول؛ لموقعها من النظم، ولأنه أخذ في بيانها مأخذ العموم، فلم يقل: ونُصحي مرٌّ، فهذا من المآخذ إلى المعنى.

---

(١) ينظر: الكامل: ١/٤٠

وعلة أخذه مأخذ العموم، إعذار صاحبه فيما صدر منه، وهذا على نحو قول امرأة العزيز: (وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء)[1]، فلو قالت: إن نفسي لأمارة بالسوء، لالتصقت التهمة بها وحدها، ولكنها لما أخذت إلى هذا المعنى مأخذ العموم، جعلت نفسها في زمرة الأنفس، وهذا أخفُّ وأعذر.

ثالثا: قوله: (عرضت) استعارة للقول، لأن العرض يكون للحوض ونحوه من الشيء المحسوس، تقول عرضت الناقة على الحوض.

وإذا ما نظرنا إلى هذه الاستعارة من طريق المأخذ إلى المعنى، وجدناها قريبة المأخذ إلى معنى النصح؛ لأنه قول يحتمل القبول أو الرفض، ومن ثمَّ فهو عرض من الناصح.

ومن المآخذ المتروكة: التعبير بالقول: قلت له، وهذا يحدو بالمعنى إلى التحسير والتنديم، وعلو القائل على المقول له، وذلك بعيد عن المعنى.

ومنه، نصحت يحيي، أو ليحيي، وذاك أيضا بعيد؛ إذ ليس فيه تأكيد للنصيحة، ولا مدخل فيه ليقول: (مني)، وهي كلمة مقصودة تدل على حرصه ومحبته لصاحبه.

رابعا: من مواطن الصنعة في البيت الثالث: قوله: (يُقال عليه)، ومن المآخذ المتروكة: يقال عنه، ولكنه لعلمه بالفصاحة وجوهر الكلام كما يقول المبرد، أخرج الكلام هذا المخرج، وكان موفقا فيه؛ لأنه قول شرٍّ، والأفصح فيه أن يُعدى بعلى، كما في قوله تعالى: (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون)[2]، وكما في قوله تعالى: (واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك

(١) يوسف، من الآية: ٥٣.

(٢) آل عمران، من الآية: ٧٥.

سليمان)[1]، يقول صاحب الأمالي: «لأنهم لما أضافوا الشر والكفر إلى ملك سليمان حَسُن أن يقال: نتلو عليه، ولو كان خيرا لقيل عنه»[2].

خامسا: قوله: (إن الحرَّ حرٌّ) ذهبت مثلا، وهي أجود ما في الأبيات، فوحدها تكفي في باب النصح، وقد أخذت بأعنة الكلام كله، فحسن الختام بها.

سادسا: مع قول المبرد: (فهذا كلام ليس فيه فضل عن معناه)، تفسيره: أنه مدح لهذا الشعر من جهة وقوع الألفاظ على معانيها، مع جودة الرصف، وتناسق العبارات: النصح مرّ، بقعاء شر، الحر حر).

٢- ساق ابن طباطبا بعض الشواهد الشعرية في باب: حسن تناول الشاعر للمعاني التي سُبِق إليها، وهي وثيقة الصلة بما نحن فيه؛ لأن التناول يعني المأخذ إلى المعنى، وهذا واضح في تقديم ابن طباطبا لهذا الباب بقوله: «وإذا تناول الشاعر المعاني التي سبق إليها **فأبرزها في أحسن من الكسوة التي عليها** لم يعب بل وجب له فضل لطفه وإحسانه فيه، كقول أبي نواس:

وإنْ جَـرَتِ الأَلْفـاظُ مِنَّـا بمِدْحَـةٍ لغَيْـرِكَ إنْسـاناً فأنـتَ الـذي نَعْنِـي

أخذه من الأحوص حيث يقول:

متى ما أقل في آخر الدهر مدحة فما هي إلا لابن ليلى المكرم»[3]

المأخذ الذي أخذ منه أبو نواس إلى المعنى مختلف عن مأخذ الأحوص، وإن تقاربا في الظاهر، ذلك أن كلا الشاعرين قصد إلى: «إفراد

---

(١) البقرة، من الآية: ١٠٢.

(٢) أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد): ٣٥٢/١، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي وشركاه)، الطبعة: الأولى، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.

(٣) عيار الشعر: ١٢٣.

ممدوحه بصفة لا يشركه فيها غيره، فينفيها في أوّل كلامه عن جميع الناس، ويثبتها لممدوحه بعد ذلك»[1].

أولا: أخذ أبو نواس إلى المعنى مأخذ الافتراض الذي يدل على ندرة حدوث المدح منه لغير هذا الممدوح، فبنى كلامه على الشرط بـ(إن)، ولو قال: إذا جرت الألفاظ، أو لو جرت–وهما من المآخذ المتروكة– لاقترب من مأخذ الأحوص؛ لأن الأحوص لم يقصد إلى الندرة، وإنما أخذ مأخذ الاستقصاء (متى ما)، ولذلك اضطر إلى أن يقول: في آخر الدهر، واستغنى أبو نواس عن ذلك.

ثانيا: لفظ أبي نواس أجرى على اللسان، وألذ في الآذان من لفظ الأحوص، وهذا واضح الشطر الأول من البيتين، ولعل هذه الرقة من أسباب وصف ابن طباطبا له بأنه أبرزه في كسوة أحسن من التي عليها، ذلك أن لفظ الأحوص جزل متين، تأمل: (متى ما، أقل، الدهر، المكرم)، ولفظ أبي نواس رقيق عذب: (وإن جرت الألفاظ منا بمدحة).

ثالثا: استعارة الجري للنطق استعارة قريبة المأخذ إلى المعنى؛ لأن الجري أشبه بتراسل العطايا ونحوها من يد الممدوح، ثم إن فيها إشارة إلى سلاسة إنشاده، وفيها تخييل حسن للمدحة، فكأن الألفاظ تجري بها؛ لخفتها، وهذا أنسب لتنكيرها على التقليل، وأليق بمأخذ الافتراض.

رابعا: أسلوب القصر بالنفي بـ (ما وإلا) عند الأحوص، في قوله: **(فما هي إلا لابن ليلى المكرم)**، أشبه بافتخاره على الممدوح، وتدبر هذه اللام في قوله: (لابن ليلى) تلحظ ذلك، وألطف منه منزعا قول أبي نواس: **(فأنتَ الذي نَغْنِي)**، وهو من القصر أيضا بتعريف الطرفين، لكنه أشفّ وأخفّ، والممدوح حاضر فيه، بخلاف ممدوح الأحوص.

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب، لابن حجة الحموي: ٢٦٨/٢، تحقيق: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال–بيروت، دار البحار–بيروت، الطبعة الأخيرة ٢٠٠٤م.

خامسا: على ظهور فضل أبي نواس في هذا البيت إلا إنه عندما يُوضع بإزاء قول الخنساء في أخيها:

وما بلغت كف امرئ متطاولًا من المجد إلا والذي نلت أطول

ولا بلغ المهدون للناس مدحة وإن أطنبوا إلا الذي فيك أفضل

يتبين قصور غاية أبي نواس عن الخنساء، وكشف عن هذا ابن حجة بقوله: «وأخذ أبو نواس معنى البيت الثاني، ولكن لم يتمكن منه إلا في بيتين، ومع ذلك قصر عنه تقصيرًا زائدًا، فقال:

إذا نحن أثنينا عليك بصالح فأنت كما نثني وفوق الذي نثني

وإن جرت الألفاظ منا بمدحة لغيرك إنسانًا فأنت الذي نعني

هذا كله عين كلام الخنساء، ولكن فاته **(وإن أطنبوا)** في بيت الخنساء، وقولها: (وما بلغ المهدون)، وكل هذه المبالغات قصر عنها أبو نواس، والفرق بين (فأنت الذي نعني)، وبين (الذي فيك أفضل) ظاهر»[(١)]، وهذا من رائق الحس النقدي مع خلوه من التعليل، وهو مما تكفي فيه الإشارة.

سادسا: ولما كان للمآخذ إلى المعاني جليل أثر في هذا الباب، فضل القاضي الجرجاني قول أبي الجويرية:

يزيد على سرْوِ الرجال بسرْوِه ويقصر عنه قولُ مَنْ يتمدّح[(٢)]

على بيتي الخنساء، فقال: وقد أخذ أبو الجُوَيرية بيتي الخنساء أحسن مأخذ، وجمعهما في بيت استوفى فيه معنييها، وقد مرَّ بنا في المبحث الأول تبيين مأخذ أبي الجويرية إلى هذا المعنى، وفضله فيه.

٣- يقول الثعالبي: «كَانَ السلامِي أشعر شعراء بَغْدَاد بعد ابْن نباتة، وأمير شعره وغرة كَلامه، قَوْله فِي تشبيب قصيدة لَهُ فِي الصاحب إِسْمَاعِيل بن عباد:

---

(١) خزانة الأدب: ٢/٢٦٨.

(٢) ينظر: الوساطة: ١٩١.

وَنحـــنُ أُلاكَ نُطْلَـــبُ مِـــنْ بعيـــدٍ لِعِزَّتِنَـــا، ونُـــدْرَكُ مِـــنْ قَريـــبِ
تَبَسَّـــطْنا علـــى الآثـــامِ لمَّـــا رَأينَـــا الْعَفـــوَ مِـــنْ ثَمَـــر الـــذُّنُوبِ

قَالَ: وَكَانَ الصاحب إِذْ أنْشد هَذَا الْبَيْت الْأَخير، يَقُول: **هَـذَا وَالله معنى؛ قد كَانَ يَدُور فِي خاطر النَّاس، فيحومون حوله، ويرفرفون عَلَيْهِ، وَلا يتوصلون إِلَيْهِ على قرب مأخذه، حَتَّى جَاءَ السلامِي، فأفصح عَنهُ، وَأحسن مَا شَاءَ، وَلم يدر مَا رمى بِهِ»**[1].

و(ألاك) اسم إشارة للبعيد، ويروى (أولاك)، ولا واحد له من لفظه، قال الكسائي: ومن قال: أُلاك فواحِدُه ذَاكَ، وأُلالِك مِثْلَ أُولئك[2]؛ والإشارة إلى منزلتهم في الشرف والرفعة، لقوله: (لعزتنا)، فهذا احتراس من توهم انصراف قوله: (نُطلب) إلى معنى آخر كالقتل في الحرب ونحوه، وإنما المقصود: يُشار إلينا بالبنان لرفعتنا وشرفنا، وقوله: وندرك من قريب، كناية عن الموت، فهو المُدرِك لكل إنسان من أقرب ما يكون إليه، وليس هذا المعنى الذي رفرف الناس عليه وحاموا حوله؛ لأنه قريب التناول مشترك، والمعنى الدقيق الذي وصفه الصاحب في البيت الثاني، وإليه أشار.

ذلك أنه لما كنَّى عن الموت، ذكر التبسُّط على الآثام، أي: إن الاغترار بالعفو مدعاة إلى التساهل، وهذا البيت مفصول عن سابقه لكمال الاتصال، فهو تفسير وشرح لهاجس النفس عند تذكر الموت.

ومأخذ هذا البيت عجيب جدا، ذلك أن التبسُّط: مأخوذ من البساط، وهي الأرض ذات الرياحين، ومعناه: التنزُّه[3]، وهو استعارة للخوض في الآثام، ولكنه نقل المعنى بهذه الاستعارة من باب الفقه إلى بابة الشعر، فالآثام صارت بُسطا للتنزُّه، واستحال الخوض فيها امتطاء، وهذه الاستعارة فتحت

(١) خاص الخاص، الثعالبي: ١١٦، تحقيق: حسن الأمين، دار مكتبة الحياة – بيروت، لبنان.

(٢) لسان العرب: إلى.

(٣) لسان العرب: بسط.

باب تصوير العفو ثمرةً من ثمار شجر الذنوب، فجعلنا أمام روضة بسطها وفرشها الآثام وشجرها الذنوب وثمارها العفو، لله دره!

كل ذلك في بيت واحد، لا يُعيي سامعه في لفظ منه.

ولو أدرنا المآخذ على هذه الصورة كما فعل الإمام عبد القاهر لكان حسنا، من ذلك أنه لو سلك طريق التشبيه، فقال: سرنا على آثام كالبُسط، أو صارت آثامنا بسطا، لاختلف المعنى، ذلك أن الغرض من الاستعارة المكنية في قوله: (تبسَّطنا على الآثام)، هو تصوير الدعة والأمن والتمكن لمرتكب الآثام، فهي على حد قوله تعالى: (أولئك على هدى)[1]، وجعلُ الآثام بُسطا ليس غرضا في ذاته، كما أن جعل الهدى مطية ليس غرضا في ذاته، وإنما هو وصلة لتصوير تمكن الفاعل، والتشبيه في هذا الموضع إنما يصرف المعنى إلى المشبه وما آل إليه، ويدل على ذلك صنعة (الترشيح) بحرف الجر (على)؛ لأنه ذهب بهذا الترشيح مذهب إخفاء المستعار له (الخوض)، والتشبيه لا يكون على هذه الصفة، ولو: قال في الآثام، لبرز معنى الخوض، واختلف مأخذ المعنى حينئذ، وما ألطف (الترشيح) كذلك في قوله: (رأينا)، وإنما كان ترشيحا؛ لأن الرؤية من لوازم (التبسط) بمعنى التنزُّه، ولو قال: علمنا، وهو من المآخذ المتروكة؛ لفات معنى الاستمرار في التنزه لرؤية مُطمِعٍ، وهو ثمر العفو، ومن حسن تأتيه للمعنى، وتقريبه لمأخذه، أنه جعل العفو (من) ثمر الذنوب، فهذه الكلمة أفادت تقريب الادعاء، وإدخاله على السامع دخول المأنوس بعد غرابته، فالعفو ليس من ثمر الذنوب، وإنما هو سبب يتعلق به المذنب، برحمة الله سبحانه وتعالى، وعلى هذا سلم له هذا التشبيه.

وقرب المأخذ إلى هذا المعنى، هو التماس هذا الخيط الدقيق إلى أبعد غاية الضدين (العفو والذنوب)، ولعل هذا على وجه الخصوص هو الذي

(١) البقرة، من الآية: ٥.

حدا بالصاحب أن يقول: **(هَذَا وَالله معنى؛ قد كَانَ يَدُور فِي خاطر النَّاس، فيحومون حوله، ويرفرفون عَلَيْهِ، وَلا يتوصلون إِلَيْهِ على قرب مأخذه)**، رحم الله السلامي وصاحبه ومن نقل إلينا حديثهم.

٤- أختتم هذا البحث بشاهد من خير الكلام، وهو كلام الله سبحانه وتعالى، وأمهد له بإيجاز على النحو الآتي:

قرب المأخذ إلى المعنى في القرآن الكريم:

تتسم المعاني في القرآن الكريم بأنها قريبة المأخذ بعيدة المرام في آن واحد، وإذا تدبرنا أي معنى في القرآن الكريم تبيَّن لنا ذلك واضحا جليا، فهو الذي أعجز أرباب الفصاحة والبيان، وألجأهم إلى فراق ما يُجيدونه من الصناعة إلى التحامي بالقوة والغلبة، يقول صاحب الزهر: «وفضل القرآن على سائر الكلام معروف غير مجهول، وظاهر غير خفيّ؛ يشهد بذلك عجز المتعاطين، ووهن المتكلّفين، وتحيّر الكذابين.. إن أوجز كان كافيا، وإن أكثر كان مذكّرا، وإن أومأ كان مقنعا، وإن أطال كان مفهما، وإن أمر فناصحا، وإن حكم فعادلا، وإن أخبر فصادقا، وإن بيّن فشافيا، سهل على الفهم، **صعب على المتعاطى، قريب المأخذ، بعيد المرام**، سراج تستضيء به القلوب..»[(١)].

=ومن الشواهد التي عُني النقاد ببيان حسن مآخذها في القرآن الكريم، قوله تعالى: {وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ}[(٢)].

يقول ابن الأثير: «ألا ترى ما أحسن مأخذ هذا الكلام وألطفه، فإنه أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم، فقال: لا يخلو هذا الرجل من أن يكون كاذبا، فكذبه يعود عليه، ولا يتعداه، أو يكون صادقا، فيصيبكم بعض الذي

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب، للحصري القيرواني: ١/١٠٤، تحقيق: أ. د / يوسف على طويل، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان –، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م.

(٢) غافر: ٢٨

يعدكم إن تعرضتم له، وفي هذا الكلام من حسن الأدب، والإنصاف ما أذكره لك، فأقول: إنما قال: {يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ} ، وقد علم أنه نبي صادق، وأن كل ما يعدهم به لا بد وأن يصيبهم، لا بعضه؛ لأنه احتاج في مقاولة خصوم موسى عليه السلام، أن يسلك معهم طريق الإنصاف والملاطفة في القول، ويأتيهم من جهة المناصحة، ليكون أدعى إلى سكونهم إليه، فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله، وأدخل في تصديقهم إياه، فقال: {وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ} ، وهو كلام المنصف في مقابلة غير المشتط، وذلك أنه حين فرضه صادقا، فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعد به، لكنه أردف بقوله: {يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ} ، ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام، فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافيًا، فضلا عن أن يتعصب له، وتقديم الكاذب على الصادق من هذا القبيل، كأنه برطلهم[1]، في صدر الكلام بما يزعمونه؛ لئلا ينفروا منه»[2].

نقلت هذا الكلام على طوله لما فيه من حسن الفائدة، ولعرض منهج ابن الأثير في باب المأخذ إلى المعنى أيضا، حيث بيَّن مأخذ الرجل المؤمن إلى المعنى فقال: فإنه أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم، ثم شرح ذلك، ثم وقف عند قوله: {يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ}، واستظهر المأخذ المتروك في قوله: (وأن كل ما يعدهم به لا بد وأن يصيبهم، لا بعضه)، ثم بيَّن علة تركه لهذا المأخذ، وإيثاره للمأخذ الآخر، بأنه أراد أن يسلك معهم مسلك الملاطفة، والمناصحة، ثم بين ضرورة هذا المأخذ، وهو قوله: (ليكون أدعى إلى سكونهم إليه)، ثم أوضح لماذا كان هذا المأخذ أقرب من غيره، فقال: ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام، فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافيًا، فضلا عن

(١) يقال: برطل فلان فلانا رشاه، فتبرطل فارتشى. من شرح المحقق.

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير: ٢٠٥/٢ وما بعدها، تحقيق: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة القاهرة.

أن يتعصب له، ثم ربط بين مأخذ قوله: {يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ}، ومأخذ تقديم الكذب على الصدق، ولماذا ذكره في صدر كلامه.

وإذا راجعنا هذه الخطوات نجدها تتفق مع منهج النقاد الذي استنبطه في العنصر السابق، تماما، وعلى هذا يتقوى عندي من تلك المحاولة صحة انتهاج هذا المنهج في القرآن الكريم، وأنه لا حرج فيه.

ومما لم يُشر إليه ابن الأثير في الآية –وحسبه أنه نبه إلى المنهج وأبان عنه– بداية كلام الرجل المؤمن، قوله: (أتقتلون رجلا)، حيث أخذ في الإبانة عنه مأخذ الاستفهام الإنكاري، وللإنكار أدوات كثيرة غير الهمزة، فمن المآخذ إليه مثلا: لِمَ تقتلون رجلا، كما قال تعالى: (لم تقولون ما لا تفعلون)[1]، أو (لم تعظون قوما)[2]، أو الاستفهام بهل، أو غيرها، ولكن الرجل أخذ إلى المعنى من طريق لا يشعرون معه هذا الإنكار، فأتى بأخف الأدوات، فكان حسبه أن ينبههم إلى مراجعة أنفسهم، لا أن يصدع فيهم بذلك، كما أشار ابن الأثير من أنه أتاهم من جهة المناصحة.

ومن ذلك إيقاع الهمزة على فعل القتل، حيث ترك الرجل مأخذ الإرادة، فلم يقل: أتريدون أن تقتلوا، كما قال تعالى: (أتريدون أن تهدوا من أضل الله)[3]، أو (أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا)[4].

ذلك أن المعنى ليس على بيان إنكار الإرادة، وإنما على بيان إصرارهم، فقال أتقتلون جريا على ذلك.

ومن قرب المأخذ أيضا إلى هذا المعنى: التعبير بالمصدر المنسبك من (أن) والفعل، في قوله: (أن يقول ربي الله)، ولم يقل الرجل: قوله، فترك

---

(١) الصف، من الآية: ٢.

(٢) الأعراف، من الآية: ١٦٤.

(٣) النساء، من الآية: ٨٨.

(٤) النساء، من الآية:.١٤٤.

مأخذ المصدر الصريح، لعدم مواجهتهم بالحدث مجردا، واحتراسا أيضا؛ لأنه لو أثبت الحدث غير متعلق بقائله؛ لكان سبيلا إلى كشف إيمانه.

وكلمة (ربي) في هذه الآية لها مغزى دقيق، وفيها من المآخذ المتروكة كأن يقول: إلهي الله؛ وإنما عدل عن ذلك؛ لأن موسى كان ربيب فرعون، فلو قال الرجل: إلهي الله، لتوهموا أن موسى يعترف بربوبية فرعون، ولكن الشأن هو إنكار الإلوهية من باب أولى؛ فإذا أنكر ربوبية فرعون أنكر إلوهيته من باب أولى.

هذا، وإذا تدبرنا كل لفظ في الآية وكل عبارة، بل وفي القرآن كله، ووازناه بما عدل به عنه لتكشفت لنا لطائف جليلة، وحكم بليغة، كيف لا وهو الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، فألفاظه نور، والعيش في صحبته سرور، فاللهم أنعم علينا بفهمه، وحسن تدبره، والعيش في رحابه، فإنك نعم المولى ونعم النصير، وصلاة وسلام على المبعوث رحمة للعالمين.

الخاتمة

الحمد لله على ما أنعم وتفضل، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

ففي هذه الخاتمة إبراز للنتائج التي توصل إليها الباحث في باب المأخذ إلى المعنى، على النحو الآتي:

١- نقد المعنى في ضوء مأخذ المتكلم إليه باب نقدي نال عناية النقاد قديما، وتناولوه بالتنظير والتطبيق، وحاولت قدر جهدي استخلاص منهجه من خلال إشاراتهم، وذلك في المبحث الثالث من هذا البحث.

٢- المأخذ إلى المعنى كشفٌ للممارسات العقلية للكلام قبل الإبانة عنه، فهو باب من أبواب مكاشفة عوالم النفس التي يكتنفها الغموض والتشابك، وعلى قدر المشقة في استدعاء المآخذ التي تركها المتكلم، يكون الوقوف على حقيقة تصور أصحاب المعاني لها، فهو باب يقوم على الافتراض والتخيُّل المصحوبين بالحذر والحيطة؛ لأن المآخذ التي نَصِفُها بالمتروكة لا بد من أن يكون بينها وبين المآخذ المصطفاة وثيق صلة، وأن تكون قابلة للاختيار منها، وقابلة أيضا للقياس عليها، وليس هذا استغراق في الخيال؛ لأن كبار نقادنا صنعوا ذلك، وانتهجوه في سبيل التعرف على محاسن الكلام.

٣- تطبيق منهج المأخذ إلى المعنى في القرآن الكريم، أمر مشروعٌ لا حرج فيه، فهو سبيل إلى التعرف على بلاغة الإعجاز، ولكن يشترط لسالك هذا المنهج أن يتحرى التأدب مع كلام الخالق سبحانه وتعالى، فينأى عن العبارات التي تُقال في الشعر ونحوه من كلام الناس، من مثل: فلو قال: كذا، ولو أخذ إليه من طريق كذا؛ إلا أن يكون الكلام متعلقا بحديث القرآن عن شخص ما، كما في حديث مؤمن آل فرعون.

٤- المآخذ إلى معاني القرآن كلها قريبة بعيدة المرام، وتعدُّ من وجوه الإعجاز فيه.

٥- إذا كان فضل الكلام لا يظهر إلا بعرضه على غيره مما يجري مجراه، فإن حقيقة المعنى وغرض المتكلم لا يظهران إلا في ضوء عرضهما على ما اختاره وما تركه من ألفاظ وأساليب وصور بيان، فالموازنة بين معنى ومعنى، إنما تحسن إذا وازنَّا أولا بين المعنى ونفسه في إطار استحضار مآخذه المتروكة.

٦- لكل ناقد معجم خاص، ويظهر ذلك من خلال وصفهم للمأخذ تارة بالدنو والقرب، وتارة بالبعد والعلو، وهم يقصدون في كل منهما حسن المأخذ ودقته، والذي يحدد ذلك سياق كلام كل منهم، فعبد القاهر مثلا يرى أن قرب المأخذ يرتبط بالمشترك بيِّن الاشتراك، وأبو هلال العسكري يرى أن قرب المأخذ صفة المطبوع!

٧- ما زال تراثنا النقدي بحاجة إلى تكثيف الجهود للكشف عن مصطلحات ترددت عند النقاد قديما، وكانت واضحة المعالم في أذهانهم، فلم يتعرضوا للإبانة عنها، أو التعريف بها، وهي في الحقيقة غامضة بالنسبة إلينا، ومرَّ بنا من نحو ذلك قول القاضي الجرجاني في وصف شعر: إنه فارغ الألفاظ، وقول المبرد: هذا الكلام ليس فيه فضل على معناه!

ولا شك في أن الذهن -عند قراءة هذين الوصفين بعيدا عن سياقهما- ينصرف إلى معنى القدح في هذا الشعر، أو الانتقاص منه، وقد تبين أن الشأن خلافُ ذلك، وغير ذلك من المصطلحات التي نظنها واضحة؛ لجريانها في كلام نقدنا، وإحساسنا بقرب معناها من نفوسنا، فإذا ما أردنا الإفصاح عنها أو استظهارها في شعر أو نحوه، لم نجد إلى ذلك سبيلا، وكان لسان حالنا: إن من الأشياء ما تحيط به المعرفة ولا تؤديه الصفة، وذلك نحو قولهم: شاعر حلو الديباجة،

رقيق حواشي الألفاظ، شعر يترقرق، فيه ماء الطبع، فلان سمح بالشعر، وعلى شعره رونق الطبع ووشى الغريرة..

وإذا كان من وصية في هذا البحث، فخير ما أوصي به: أن نبحث عن مثل هذه المصطلحات، ونجليها في ضوء كلام ناقديها، بالتنظير والتطبيق، حتى يتعبَّد طريق فهمها إلى أذهاننا كما فهمها الأوائل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المصادر والمراجع

(١) أسرار البلاغة، لعبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.

(٢) أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد)، الشريف المرتضى، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي وشركاه)، الطبعة: الأولى، ١٣٧٣هـ ١٩٥٤م.

(٣) البديع في البديع، لابن المعتز، دار الجيل، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.

(٤) البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة السابعة ١٤١٨هـ ، ١٩٨٨م.

(٥) تقريب منهاج البلغاء لحازم القرطاجني، د/محمد محمد أبو موسى، مطبعة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى٢٠٠٦م.

(٦) جمهرة اللغة، لابن دريد، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

(٧) خاص الخاص، للثعالبي: ١١٦، تحقيق: حسن الأمين، دار مكتبة الحياة – بيروت، لبنان.

(٨) خزانة الأدب وغاية الأرب، لابن حجة الحموي، تحقيق: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال–بيروت، دار البحار–بيروت، الطبعة الأخيرة ٢٠٠٤م.

(٩) دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

(١٠) الرسائل الأدبية، للجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣ هـ.

(١١) زهر الآداب وثمر الألباب، للحصري القيرواني، تحقيق: أ. د / يوسف على طويل، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان –، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م.

(١٢) شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي، وضع فهارسه العامة: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣م.

(١٣) الصناعتين: الكتابة والشعر، لأبي هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – بيروت، ١٤١٩ هـ.

(١٤) العقد الفريد، لابن عبد ربه، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ هـ.

(١٥) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، الطبعة الخامسة ١٤٠١ هـ – ١٩٨١م.

(١٦) عيار الشعر، لابن طباطبا، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع، مكتبة الخانجي – القاهرة.

(١٧) الكامل في اللغة والأدب، للمبرد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة: الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ– ١٩٩٧م.

(١٨) لسان العرب، لابن منظور، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ.

(١٩) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، تحقيق: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ـ القاهرة.

(٢٠) المحب والمحبوب والمشموم والمشروب، للسري الرفاء، تحقيق: مصباح غلاونجي، دمشق، ١٤٠٧هـ.

(٢١) المسائل البصريات، لأبي علي الفارسي، تحقيق: محمد الشاطر أحمد محمد أحمد، مطبعة المدني، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥م.

(٢٢) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس: تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

(٢٣) منهاج البلغاء، وسراج الأدباء، لحازم القرطاجني، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، الدار العربية للكتاب، تونس، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٨م.

(٢٤) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، للآمدي، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف – الطبعة الرابعة.

(٢٥) نقد الشعر، لقدامة بن جعفر، مطبعة الجوائب – قسطنطينية، الطبعة: الأولى، ١٣٠٢هـ.

(٢٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي: المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

(٢٧) الوساطة بين المتنبي وخصومه، للقاضي عبد العزيز الجرجاني، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ملخص باللغة العربية	٣٢٣
ملخص باللغة الأجنبية	٣٢٤
مقدمة	٣٢٥-٣٢٦
التمهيد	٣٢٧-٣٣٠
المبحث الأول:المأخذ إلى المعنى في ضوءالممارسات التنظيرية عند النقاد	٣٣١-٣٤١
المبحث الثاني: المأخذ إلى المعنى في ضوء الممارسات التطبيقية عند النقاد	٣٤٢-٣٥٦
المبحث الثالث: المنهج النقدي للمأخذ إلى المعنى استنباطا وتطبيقا	٣٥٧-٣٦٩
الخاتمة	٣٧٠-٣٧٢
المصادر والمراجع	٣٧٣-٣٧٥
فهرس الموضوعات	٣٧٦